مختصر

تسلية أهل المصائب

لأبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد
إبن محمد المنبجي الحنبلي

إنا لله وإنا إليه راجعون



اختصار وتحقيق
محمود المصري أبو عمار



مختصر

تسلية أهل المصائب

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد
ابن محمد المنبجي الحنبلي
المتوفي سنة ٧٨٥ هـ

اختصار وتحقيق

محمود المصري
أبو عمار

دار التقوى

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا... من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [الأحزاب ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن الله - جل وعلا - قد خلق الناس لغاية عظيمة قال عنها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فتغافل أكثر الناس عن تلك الغاية الشريفة، وركنوا إلى حطام الدنيا الفانية، وظنوا أنهم مخلدون فيها، ونسوا أن الذى خلقها - سبحانه وتعالى - قد قال عنها: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد: ٢٠]، بل لقد نسوا أن الدنيا دار ممر وليست بدار مقر، وأنها مملوءة بالهموم والغموم.

..... ونتيجة لتلك الغفلة فقد أصبح الإيمان بالقضاء والقدر باهتًا فى قلوب الكثير من المسلمين (إلا من رحم الله).

فإذا أقبلت المصائب والابتلاءات (والدنيا لا تخلو منها) ترى الناس يفزعون، بل

ويتسخطون على قدر الله، وذلك لأنهم لم يتحصنوا بالإيمان عامة، وبالإيمان بالقضاء والقدر خاصة الذى هو أصل من أصول الإيمان.

ومن تأمل فى أحوال الخلائق لعَلِم علم اليقين أنه ما من مخلوق إلا وكان له نصيب من آلام الدنيا وأحزانها... كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لكل فرحةٍ ترحة، وما مُلئ بيت فرحًا إلا مُلئ ترحًا».

فشرعت بإذن الله فى جمع كُتيب عن تسلية أهل المصائب، وبعد أن أعددت مادة الكتاب وقعت عينى على كتاب **(تسلية أهل المصائب)** للإمام الجليل: أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن محمد المنبجى الحنبلى.

فألفيته كتابًا قيّمًا، ولكن نظرًا لضعف الهمم، فإن أكثر الناس قد انصرفوا عن قراءة المطولات... فاستخرت الله فى اختصار وتحقيق هذا الكتاب لكى تسهل قراءته، ولكى يطمئن القارئ لصحة الأحاديث التى بين يديه.

وإننى حين أقدم هذا الكتاب تسلية لكل من أُصيب بمصيبة فى هذه الحياة الدنيا، فإننى أهمس فى أذن كل مسلمٍ ومسلمة بقول النبى صلى الله عليه وسلم: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة، فليذكر مصابه بى، فإنها من أعظم المصائب**»(١).

نعم والله يا إخوانى: فأى مصيبة فى الدنيا مهما عظمت لا تساوى بأى حال مصيبتنا فى موت النبى صلى الله عليه وسلم الذى بموته انقطع الوحى من السماء، وكثرت الفتن، وابتعد الناس من بعده عن شرع الله - جل وعلا - .... فأى مصيبة أعظم من هذه؟!

والمؤمن هو الذى يعلم أنه مسافر إلى الله، وأن كل ما هو من حطام الدنيا فسوف يتركه لا محالة... إما بالفقر أو بالموت، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٤]... بل إن المؤمن يعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأنه ما يزرعه هنا فسوف يحصده هناك، وأن

(١) صحيح: رواه الدارمي (٨٥) في مقدمة سننه، من حديث عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٤٧).

القبر صندوق العمل، وأنه لا ينفعه مالٌ ولا بنون،. . . فالكل يفر ممن حوله. . . ولا ينفع الإنسان فى هذا الموقف إلا عمله الصالح، ولذا قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ... ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

حين يصل المؤمن إلى تلك الحقيقة الكبرى ويوقن أنه موقوف بين يدى الله - جل وعلا - فى يوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن الدنيا لو سجدت بين يديه لركضها برجليه طامعًا فى ساعة واحدة يناجى فيها ربه لعل الله أن يكتب له بها النجاة من تلك النار التى أُوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عامٍ حتى احمرت، وألف عامٍ حتى اسودت، فهى الآن سوداء قاتمة . . . فيعلم المؤمن أن كل نعيم دون الجنة سراب، وكل عذاب دون النار عافية.

هنا تهون المصائب كلها على المؤمن. . . بل إنه عندما يقف على الخير الذى ادخره الله لأهل الصبر على البلاء الراضين بقضائه - جل وعلا - فإنه عندها يشتهى، وبل ويتمنى البلاء لينال الأجر العظيم من الوهاب الكريم. . . قال ﷺ: «**يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرضت فى الدنيا بالمقاريض**»(١).

فإلى إخوانى وأخواتى: إن هذا الكتاب دعوة للإيمان بالقضاء والقدر، ودعوة لكى نرضى بقضاء الله وقدره. . .

وأخيرًا فإنى أهدى لكم جميعًا قول النبى ﷺ: «**لو أن الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحُد ذهبًا فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مُتّ على غير هذا لدخلت النار**»(٢).

فهيا نطوف فى بساتين هذا الكتاب الجليل سائلين الله - جل وعلا - أن يجعله

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٤٠٢) كتاب الزهد، من حديث جابر ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٥٧٠)، وحسنه في صحيح الجامع (٨١٧٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٩٩) كتاب السنة، وابن ماجه (٧٧) في مقدمة سننه، وأحمد (٢١٠٧٩) مسند الأنصار ﷺ، من حديث أبي بن كعب ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١١٥)، وصحيح الجامع (٥٢٤٤).

تسلية لنا عما أصابنا فى تلك الحياة الدنيا.

ولا أنسى أن أهدى هذا الكتاب إلى أمى الحبيبة وأبى الحبيب جزاهما الله عنى خير الجزاء. . . .

وأخيراً فإنى أسأل القائم على كل نفس بما كسبت ــ سبحانه وتعالى ــ أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتى يوم أُدرج فى أكفانى. .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

ملامح المنهج

* لقد شرح الله صدرى لهذا العمل الجليل، فاستخرت الله ـ عز وجل ـ ثم عزمت على اختصاره وتقديمه لإخوانى فى ثوب جديد سهلٍ يسير.

* وضحت أسباب اختيارى لهذا العمل.

* قرأت الكتاب قراءة متأنية أكثر من مرة حتى أقف على منهج الاختصار.

* اختصرت الكتاب اختصاراً لا يخلّ بمعناه ولا يُذهب بفائدته لكى يكون سهلاً على إخوانى من طلبة العلم.

* خرّجت الآيات المذكورة فى الكتاب.

* خرّجت الأحاديث المذكورة فى الكتاب مع الاكتفاء (فى الغالب) بالصحيحة والحسنة.. وتعمدت البساطة فى التخريج حتى لا يملّ القارئ من امتلاء الصفحات بتخريج الأحاديث التى تزيد أحيانًا على حجم الكتاب.

* صححت ألفاظ الأحاديث التى اخترتها، وذلك بالرجوع إلى أمهات الكتب... والسبب فى ذلك أن النسخة التى وقعت بين يدى كانت كلها أخطاء فى (متون) الأحاديث، هذا بالإضافة إلى الأخطاء المطبعية الكثيرة فى (متن) الكتاب.... مما جعل الأمر شاقًا للغاية، فكان من الأمانة العلمية أن أبحث عن أصل الحديث وأعيد كتابته من جديد.

* علقت على بعض الكلمات التى تحتاج إلى فهم لمعناها.

* غيَّرت فى بعض الكلمات التى لا تؤثر فى مضمون الكتاب لكى يتضح معناها للقارئ.

* أعددت فهرسًا خاصًا بالموضوعات حتى يسهل الرجوع إلى الموضوعات.

* الدعاء دائب أن يجزى الله عنا سلفنا بما هو أهله...

* لا أدّعى الكمال فيما عملت، بل أسير على منهج القرآن المذكور على لسان سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ : ﴿ .... إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود: ٨٨].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مختصر مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المُنفرد بالبقاء والقهر، الواحدِ الأحد الفرد الصمد، ذى العزة والستر، الذى لا نِدَّ له فيبارَى ولا معارضَ له فيمارَى، ولا شريك له فيدارى، كتب الفناء على أهل هذه الدار، وجعل عقبى الذين اتقوا الجنة وعقبى الكافرين النار، قدّر مقادير الخلائق وأقسامها، وبعث أمراضها وأسقامها وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وجعل للذين أحسنوا الدرجات، وللذين أساؤوا الدركات رحمة وعدلاً، . . . . أحمده على حلو القضاء ومُرّه، وأعوذ به من سطواته ومكره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا لم يزل عظيمًا عليًّا، جبارًا قهارًا قويًّا، جل عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدّس عن التعطيل، وتنزه عن التمثيل.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعباد، ونقمة على الكفرة من أهل البلاد، فدعاهم إلى الجنة، وأرشدهم إلى اتباع السنّة، وجعل أعلاهم منزلة أعظمهم صبرًا، فمن استرجع فى مصيبته واحتسبها ذخرًا، كان له منزلة عالية وقدرًا، وكان مقتفيًا هديًا ومتبعًا أثرًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الأخيار، وسلم تسليمًا كثيرًا مستمرًا متصلاً متعاقبًا ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الموت محتومًا على جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم، وقسم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين: دار النعيم ودار الجحيم، فلا مفرَّ لأحد من الموت ولا أمان، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فسوّى فيه بين الحُرّ والعبد، والصغير والكبير، والغنى والفقير، وكل ذلك بتقدير العليم الخبير

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفَوْت، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثواب على المصائب والضرر.

ولما كانت المصائب - على اختلاف أنواعها من موت وغيره من نوائب الزمان - خَطْبًا مؤلمًا موجعًا، وأمرًا مَهُولاً مزعجًا، وردت الأحاديث والآثار لمن أصيب من المقامات، المحتسب الصابر عليها ببشارة الجنات.

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردْنا القيامة مفاليس».

وما أحسن ما قال الشاعر:

المرءُ رَهْنُ مَصَائبٍ ما تَنْقَضِي ... حَتَّى يُوسَّد جسمه في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى في غيره ... ومُعَجَّل يَلْقَى الرَّدَى في نَفْسِهِ

فأحببت أن أجمع كتابًا مُسَلِّيًا لقلوب المحزونين، ومُفَرِّجًا لكُرَب المَلْذوعين وسميته «**كتاب تسلية أهل المصائب**». وكان سببُ تأليف هذا الكتاب: أن وقع طاعون في سنة خمس وسبعين وسبعمائة في رجب، واشتدّ في آخر شوّال والقعدة والحجة، وخفّ في المحرم من سنة ست، ومات فيه الألوف من الناس، وخلت بيوت كثيرة، ومات فيه من الصالحين والعباد خلق كثير، وسميته «طاعون الأخيار» لكثرة من مات فيه من أخيار الناس، ولكن كان أكثره في الأطفال، حتى كان جماعة من أصحابنا ممن لهم عدّة من الأولاد، فلم يبق له ولا ولد. وكنت قد جمعت كتابًا في الطاعون وأحكامه في سنة خمس وستين وسبعمائة. وهو كتاب حَسَنٌ، ما نظر فيه أحدٌ إلا استحسنه، وقلّ ما خرج عنه من الأحاديث والآثار والتواريخ، ولكن لم أذكر فيه ما أعد الله للمصابين فيه؛ فأفردت هذا الكتاب تسلية لمن أصيب بمصائب الدنيا، وما رأيت ولا سمعت أن أحدًا لم يصب فيها بمصيبة.

فأردت جمع هذا الكتاب ليكون سببًا لسلوّ الشخص عن الدنيا، ومُرغبًا له

فى الآخرة، فهو - بحمد الله - فيه من الفوائد التى لا يظفر بها فى كتاب سواه.

فما كان فيه من صواب، فمن الله ورسوله، وما كان فيه من خطأ، فمنى ومن الشيطان، والله سبحانه المسؤول أن يوفقنى لإتمامه بفضله وامتنانه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه وسامعه، إنه سميع قريب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الباب الأول
فى المصيبة وحقيقتها وما أعدّ الله لمسترجعها

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦، ١٥٧]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾» الآية. ذكره البخارى تعليقًا.

وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة وجماعة من المفسرين: «هى المصائب تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم».

وقال القرطبى: «المصيبة كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه».

وقال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب(١) ولا وصب(٢) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفرّ الله بها من خطاياه»(٣).

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع - وهى قول المصاب: «إنا لله وإنا إليه راجعون» - ملجأ وملاذًا لذوى المصائب، وعصمةً للممتحنين من الشيطان.

وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيرًا، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون»، قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات. قال: «قولى اللهم اغفر لى وله وأعقبنى (٤)منه عقبى حسنة». فقلت: فأعقبنى الله من هو خيرٌ لى منه محمدًا ﷺ (٥).

وقد يحصّل العبد بكلمات الاسترجاع منزلة عالية وثوابًا جزيلاً، كما فى حديث

---

(١) النَّصَب: التعب.

(٢) الوَصَب: المرض.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

(٤) العُقْبَى: العوض والعطاء.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩١٩) كتاب الجنائز.

أبى موسى، وفيه: «فيقول الله تعالى لملائكته: ماذا قال عبدى؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تبارك وتعالى: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد»(١). وقد تقدم الاسترجاع فى المصيبة وأن قائله، عليه الصلوات من ربه والرحمة.

فصل
فى تسلية أهل المصائب بالعلاج الإلهى والنبوى

فالإلهى: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] وآيات الصبر كثيرة جدًا.

والنبوى: قوله ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرًا منها»(٢).

وقد تضمنت هذه الكلمة: «إنا لله وإنا إليه راجعون» علاجًا من الله ورسوله لأهل المصائب. فإنها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد فى عاجله وآجله، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما وتسلى عن مصيبته أحد الأصلين: أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله ـ عز وجل ـ حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية.

والثانى: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويأتى ربه يوم القيامة فردًا كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة؛ ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوّله فيه، ونهايته وحاله فيه، فكيف يفرح العبد بولد أو مال، أو غير ذلك من متاع الدنيا؟ أم كيف يأسى على مفقود؟ ففكرة العبد فى بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]،

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٠٢١) كتاب الجنائز، وأحمد (١٩٢٢٦) أول مسند الكوفيين، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١٨) كتاب الجنائز، من حديث أم سلمة ﵂.

ومن تأمل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاءَ أدواءِ المصائب.

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب فى كتاب الله وسنّة رسول الله، فيجد أن الله تعالى أعطى - لمن صبر ورضى - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة.

ومن أنفع ما للمصاب أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب.

وذكر أبو الفرج بن الجوزى بإسناده عن عبد الله بن زياد، قال: حدثنى بعض من قرأ فى الكتب: أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغ أرض بابل مرض مرضًا شديدًا؛ فلما أشفق أن يموت، كتب إلى أمه: يا أُماه اصنعى طعامًا، واجمعى من قدرت عليه، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمى هل وجدت لشىء قرارًا باقيًا، وخيالاً دائمًا؟ إنى قد علمت يقينًا أن الذى أذهب إليه خير من مكانى؛ قال: فلما وصل كتابه صنعت طعامًا، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة؛ فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد، فقالت: من يبلغك عنى أنك وعظتنى فاتعظتُ، وعزيتنى فتعزّيت، فعليك السلام حيًّا وميتًا.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لكل فرحة ترحة، وما مُلئ بيت فرحًا إلا مُلئ ترحًا».

فصل

فى أن مرارة الدنيا هى حلاوة فى الآخرة

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر العبد بعين بصيرته، فليعلم أن مرارة الدنيا هى بعينها حلاوة فى الآخرة يقلبها الله تعالى، وحلاوة الدنيا هى بعينها مرارة فى الآخرة؛ ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير من عكس ذلك، فإن خفى عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق، وهو قوله ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**»[1].

وكذلك قوله فى الصحيح: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ فى جهنم صبغة؛ ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ فى الجنة صبغة؛ فيقال**

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٢٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يارب ما مرّ بى بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[١].

ومن تسلية أهل المصائب: أن يستعينوا بالله ويتكلوا عليه، ويتعزوا بعزاء الله تعالى، ويمتثلوا أمره فى الاستعانة بالصبر والصلاة.

وفى حديث أنس بن مالك قال: ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيرى؟ كنا عند رسول الله ﷺ جلوسًا فضحك، فقال: «**تدرون ممَّ ضحكتُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقضِ له قضاء إلا كان خيرًا له**»[٢].

قال بعض الحكماء: إن لله عبادًا يستقبلون المصائب بالبشر، قال: فقال: أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم.

قال وهب بن منبه: وجدت فى زبور داود يقول الله تعالى: «يا داود هل تدرى من أسرع الناس ممرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى».

قال عبد العزيز بن أبى رواد: ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الصدقة.

فصل

من أعظم المصائب: المصيبة فى الدين

فهى من أعظم مصائب الدنيا والآخرة، وهى نهاية الخسران الذى لا ربح معه، والحرمان الذى لا طمع معه.

وقد حكى ابن أبى الدنيا عن شريح أنه قال: «إنى لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره، إذ لم تكن أعظم مما هى، وإذ رزقنى الصبر عليها، وإذ وفقنى للاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها فى دينى».

ومن أعظم المصائب فى الدين موت النبى ﷺ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم؛ لأن بموته ﷺ انقطع الوحى من السماء إلى يوم القيامة،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١١٧٥٠) باقي مسند المكثرين، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٩٨٥).

وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد، بارتداد العرب عن الدين، فهو أول انقطاع عُرَى الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد، وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيها.

قال أنس بن مالك ﷺ: «ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا». رواه ابن ماجه.

قال ﷺ : **«إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بى، فإنها من أعظم المصائب»**(١).

ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه موافقًا لهذا الحديث، حيث يقول:

اصبر لكلِّ مُصيبة وتجلّدِ ... واعلم بأن المرء غيرُ مخلَّدِ

أو ما ترى أن المصائبَ جَمَّةً ... وترى المنية للعباد بمرصدِ

من لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحدِ

فإذا ذكرتَ محمدًا ومصابَهُ ... فاجعل مصابك بالنبيِّ محمدِ

والمقصود أن المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة فى الدين، ثم بعد مصيبة الدين المصيبة فى النفس، ثم فى المال؛ .... أما المال فيخلفه الله تعالى، وهو فداء الأنفس، والنفس فداء الدين، والدين لا فداء له.

* **ومن تسلية أهل المصائب:** أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والتمتعين: تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية.

قال الله تعالى فى حقها من أولها إلى آخرها: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وأى شيء حصل له من القليل؟ فمن آثر جزءًا قليلاً من قليل ينفذ، على جزء كثير من كثير لا ينفذ، فقد اغتيل عقله.

* **ومما يُسلى المصاب:** أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هى من عند الله، وأنها بقضائه وقدره، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه.

---

(١) صحيح: رواه الدارمي (٨٤) في مقدمة سننه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١١٠٦).

قال أبو الفرج بن الجوزى: علاج المصائب بسبعة أشياء :

الأول: أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة.

الثانى: أن يعلم أن المصيبة ثابتة.

الثالث: أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة.

الرابع: النظر فى حال من ابتلى بمثل هذا البلاء، فإن التأسى راحة عظيمة.

قالت الخنساء:

ولولا كثـرةُ الباكيـن حولـى ... على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثلَ ما أخى ولكن ... أعـزِّى النفس عنه بالتأسِّى

وهذا المعنى قد حَرَمَه الله ـ عز وجل ـ أهل النار، فإن المخلدين فيها كل واحد محبوس وحده، فهو يظن أنه لم يبق فى النار سواه.

الخامس : النظر فى حال من ابتلى أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا.

السادس : رجاء الخلف، إن كان من مضىٰ يصح عنه الخلف، كالولد والزوجة.

قيل للقمان عليه السلام: ماتت زوجتك؟ قال: تَجَدَّدَ فراشى.

السابع : طلب الأجر بالصبر فى فضائله وثواب الصابرين وسرورهم فى صبره، فإن ترقى إلى مقام الرضى فهو الغاية.

وما يلحق بعلاج هذه السبعة أشياء أمور أخر:

الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خيرٌ له.

التاسع: أن يعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار.

العاشر: أن يعلم أنه مملوك وليس للمملوك فى نفسه شىء.

الحادى عشر: أن هذا الواقع وقع برضى المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضى به السيد.

الثانى عشر: معاتبة النفس عند الجزع.

الثالث عشر: إنما هى ساعة فكأن لم تكن.

* ينبغى للعبد أن لا ينكر فى هذه الدنيا وقوع هذه المصائب، فكلُّ ما يظن فى

الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب.

قال أبو الفرج بن الجوزى : ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تُعْتَوَرْ فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعانى المِحَن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلاثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسى فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له، إلا البرارى فى العيش الضنك، ومحمد - صلى الله عليه وعليهم أجمعين - يصابر الفقر، وقتل عمه حمزة، وهو من أحب أقاربه إليه، ونفور قومه عنه. . . . وقد قال النبى ﷺ : «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[١].

* **قال ابن الجوزى**: رأيت جمهور الناس إذا طرقهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى، وتارة بالتداوى، إلى أن يشتد عليهم، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى المصالح من وصية، أو فعل خير، أو تأهب للموت.

وسبب ذلك ضعف الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

فينبغى للمتيقظ أن لا يتأسف على ما فات، وأن يتأهب فى حال صحته قبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل. وهل ينتظر الصحيح إلا السُّقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم؟

* وليعلم أهل المصائب أنه لولا محنُ الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكِبْر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده فى الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلى بنعمائه كما قيل:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

* قد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر إليه والسامع عنه من الاعتراض على الأقدار، فلا شيء أنفع من العلم؛ لأن العالم لو حصل له هلع شديد في مصيبته، يعلم أنها زلة منه، فيدري كيف يتنفس؛ والعابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صاعد إلى فوق.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال لي جبريل: يا محمد عِشْ ما شئت، فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت، فإنك ملاقيه**»(١).

* ينبغي للمصاب بنفسه أو بولده أو بغيرهما، أن يجعل في المرض مكان الأنين ذكرَهُ الله تعالى، والاستغفار والتعبد؛ فإن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق.

وعن أبي محمد الحريري قال: حضرتُ عند الجنيد قبل وفاته بساعتين، فلم يزل تاليًا وساجدًا، فقلت له: يا أبا القاسم، قد بلغ بك ما أرى من الجهد، فقال: يا أبا محمد، أحوج ما كنتُ إليه هذه الساعة؛ فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا.

وفي حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»(٢).

وكما في قصة يونس - عليه السلام - لما تقدم له عمل صالح قال: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)**﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، ولما لم يكن لفرعون عمل خير قط لم يجد وقت الشدة متعلقًا، فقيل له: ﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)**﴾ [يونس: ٩١]، فمن ضيع الله في صحته، فإنه يضيعه في مرضه، والله أعلم.

* وليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبة، بل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمتُ عدوه، ويسوءُ صديقه، ويغضب

---

(١) حسن: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٠٦)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٤٨)، من حديث جابر ﷺ، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٨٣١)، وصحيح الجامع (٤٣٥٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وأحمد (٢٦٦٤) ومن مسند بني هاشم ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

ربَّه، ويسرُّ شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه. وإذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه؛ فهذا هو الثبات فى الأمر الدينى. . . . قال النبى ﷺ: «**إنما الصبرُ عند أول الصدمة**»(١).

وقال ﷺ: «**يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرضت فى الدنيا بالمقاريض**»(٢).

قال يحيى بن معاذ: «ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت؟ ومالك تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت؟».

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تُصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا لها ذلك، فقالت: «ما أُصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت فى عينى أصغر من الذباب».

ومما يُسلى أهل المصائب: أن المصاب إذا صبر واحتسب، وركن إلى كريم، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه، ويعوضه عن مصابه؛ فإن الله تعالى لا يخيبه، بل يعوضه؛ فإنه من كل شىء عوض إلا الله تعالى، فما منه عوض.

كما قيل:

من كل شىء إذا ضيعته عوضٌ   وما من الله إن ضيعتَهُ عوَّض

قال ﷺ: «**إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط**»، زاد الإمام أحمد: «**ومن جزع فله الجزع**»(٣).

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٥٤) كتاب الأحكام، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٤٠٢)، من حديث جابر رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٤٨٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢٣١٢٢) باقي مسند الأنصار، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٠٦).

فصل نافعٌ لمن نظر فيه وارد فيمن يفرح بالمصائب ويطلبها نظراً إلى ثوابها

روى ابن أبى حاتم بإسناده فى تفسيره عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة أنه مات له ابنٌ يقال له: يحيى، فلما نزل فى قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فاحتسبه؛ فقال والده: وما يمنعنى أن أحتسبه، وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات؟!

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربى ابنٌ كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقَّنه من الفقه جانبًا كبيرًا؛ قال: فمات. فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهى موتَ ابنى هذا. قال: قلت له: يا أبا إسحاقَ أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا فى صبى قد أنجب، ولقَّنته الحديث والفقه؟ قال: نعم. رأيت فى منامى كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قِلالٌ فيها ماءٌ، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًّا شديدًا حرُّه، قال: فقلت لأحدهم: اسقنى من هذا الماء، قال: فنظر إلىّ. وقال: ليس أنت أبى، قلت: فأى شىء أنتم؟ قال: فقال لى: نحن الصبيان الذين متنا فى دار الدنيا وخلفنا آباؤنا، فنستقبلهم فنسقيهم الماء؛ قال: فلهذا تمنيت موته.

وقال أبو مسلم الخولانى - رحمه الله -: «لأنْ يولد لى مولود يحسن الله نباته، حتى إذا استوى على شبابه، وكان أعجب ما يكون إلىَّ، قبضه الله تعالى منى، أحبُّ إلىَّ من أن تكون الدنيا وما فيها لى».

وروى ابن أبى شيبة بإسناده عن ثابت البُنانّى: أن صلة بن أشيم كان فى غزاة له ومعه ابنٌ له، فقال له: أى بُنىّ تَقَدَّمْ فقاتل حتى أحتسبك؛ فحمل فقاتل حتى قُتل، ثم تقدم أبوه فقُتل؛ فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العدوية، فقالت للنساء: مرحبًا إن كنتنّ جئتنّ لتهنِّئْنَنى، مرحبًا بكنّ، وإن كنتنّ جئتنّ لغير ذلك، فارجعنَ.

والمقصود: أن هذا المقام مقام عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظراً إلى ثوابها.

وكان **سُحنون - رحمه الله - يقول**: قد رضيتُ ما تقضيه فابتلني بما شئت، فابتلاه الله بحصار البول فما صَبَر؛ فكان يدور على الصبيان، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. فالطريقة الكاملة قوله ﷺ: «**لا تتمنَّوا لقاء العدو، وسلُوا الله العافية**».

وفي رواية: «**لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١).

واعلم أن النية فى طلب الولد وفقده وقصد بقائه، إذا صحت النية حصل الثواب الجزيل على النيتين جميعًا؛ لأن الأعمال بالنيات، فإنه ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما من أهل، ولا مال، ولا ولد، إلا وأنا أحب أن أقول عليه: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ إلا عبد الله بن عمر، فإنى أحب أن يبقى فى الناس.

يؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

وفى حديث أنس مرفوعًا: «سبعٌ يجرى للعبد أجرهن، وهو فى قبره بعد موته - فذكر منها - **أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته»**(٣).

الباب الثانى

فى البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء فى ذلك

قال الجوهرى: البكاء يمد ويقصر، فإذا مددت أردت الصوت الذى يكون مع البكاء، وإن قصرت أردت الدموع وخروجها. وهو رقة ورحمة فى قلوب عباد الله، فالبكاء على الميت مذهب الإمام أحمد وأبى حنيفة: جوازه قبل الموت وبعده. وكرهه الشافعى وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح.

قال ﷺ: «**إن الميت ليُعذب ببكاء أهله عليه**»(٤)، وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمَّى ميّتًا.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده، أنه قبل الموت يُرجى، فيكون البكاء عليه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤١) كتاب الجهاد والسير، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) حسن صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٤)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٠٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٧) كتاب الجنائز، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

حذرًا، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء، فلا ينفع البكاء.

احتج أصحابنا ومن قال بقولهم ممن جوّز البكاء قبل الموت وبعده، قال جابر بن عبدالله: أصيب أبى يوم أُحُد، فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى، فجعلوا ينهونى ورسول الله ﷺ لا ينهانى، فجعلت عمتى فاطمة تبكى، فقال النبى ﷺ: «**تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه**»(١).

وعن أنس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**وُلد لى الليلة غلام، فسميته باسم أبى إبراهيم..**»(٢). فذكر الحديث، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وفى لفظ: فأخذه فوضعه فى حِجره، وقال: «**يا بنى لا أملك لك من الله شيئًا**»؛ فقال عبد الرحمن بن عوف وأنس: يا رسول الله أتبكى وتنهى عن البكاء؟ فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم**»، ثم أتبعها بأخرى، فقال: «**إن العين تَدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٣)، رواه البخارى ومسلم بدون زيادة الألفاظ، وفيه دليل على البكاء قبل الموت.

وقد جاء فى آثار جمَّة أنه ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. وصح عنه ﷺ أنه قَبَّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه. وتقدم قصة جعفر وعبد الله بن رواحة وأصحابهما.... وكذلك صح عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبَّل النبى ﷺ وهو ميت وبكى وأبكى، وكذلك بكى علىٌّ على النبى ﷺ.

فهذه الأحاديث كلها دالة على جواز البكاء قبل الموت وبعده من غير كراهة، وما ذكره أصحاب الشافعى ومن قال بقولهم من الكراهة بعد الموت مستدلين بما تقدم من أحاديث النهى، فكلها محمولة على البكاء الذى معه ندب ونياحة. ويؤيد ذلك ما يأتى ذكره: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»، وفى لفظ: «**يعذب بما نيح عليه**»(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٤٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٢) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٧) كتاب الجنائز، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأما من ادعى النسخ فى حديث حمزة فلا يصح؛ لأن معناه لا تبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد. ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أُحُد.

وقد ذكر بعض العلماء أن البكاء الذى روى عن النبى ﷺ أنه فعله وأباحه، أو أمر به للاستحباب، هو البكاء الذى هو دمع العين ورقة القلب ورحمته؛ والذى نهى النبى ﷺ عنه، وهو البكاء - بالمدّ - الذى يستلزم الصراخ والندب والعويل.

قلت: هذا وإن كان حسنًا، يعكر عليه ما حكيناه عن الجوهرى: إن البكاء يمدّ ويقصر، فهو لغتان، فلا فرق فيه بين المدّ والقصر، والله أعلم.

* وليحذر العبد - كل الحذر- أن يتكلم فى حال مصيبته وبكائه، بشىء يُحْبِط به أجرَه، ويُسْخِط به ربَّه، مما يشبه التظلم؛ فإن الله تعالى عدلٌ لا يجور، وعالم لا يضل ولا يجهل، وحكيمٌ أفعاله كلها حكم ومصالح، ما يفعل شيئًا إلا لحكمة؛ فإنه سبحانه له ما أعطى وله ما أخذ؛ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ وهو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء، له الخلق والأمر.

وقد روى ابن أبى الدنيا بإسناده قال: حدثني يونس بن محمد المكى، قال: زرع رجل من أهل الطائف زرعًا؛ فلما بلغ أصابته آفة، فاحترق، فدخلنا عليه لنسليه عنه، فبكى وقال: والله ما عليه أبكى، ولكن سمعت الله تعالى: يقول: ﴿ **كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْه** ﴾ [آل عمران: ١١٧] فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة، فذلك الذى أبكانى.

وليحذر العبد أيضًا أن يدعو على نفسه، فإن النبى ﷺ قال:- لما مات أبوسلمة-: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون**»(١).

وليعلم أيضًا أن البكاء يضرّ الحىّ والميت، فإن الحىّ يخاف على عينيه، كما قال تعالى فى قصة يعقوب - عليه السلام - : ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف: ٨٤]. والميت لا يستريح به.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٢٠) كتاب الجنائز، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

* والبكاء والأسف على من فرّط فى جنب الله، أو من خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وهو داخل تحت المشيئة، وعنده من الندامة كأمثال الجبال، ومن الحسرات كعدد الرمال؛ فإن الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلا المرضى، كما أن العافية لا يعرف مقدارها إلا المبتلى؛ فكذلك الحياة لا يعرف مقدارها إلا الموتى؛ لأنهم قد ظهرت لهم الأمور، وانكشفت لهم الحقائق.

وإنما يحصل للشخص الحزن والبكاء على من أصيب به لذهوله عما بين يديه من سكرات الموت وغُصَصِه والانفراد فى القبر وحيدًا ذليلاً مستوحشًا، ثم مساءلة منكر ونكير - عليهما السلام - وطول مكثه تحت الثرى، إما مُنَعَّمًا، وإما مُعَذَّبًا، ثم من بعد ذلك خروجه من قبره وقيامه لرب العالمين، ثم وقوفه الطويل فى المحشر، وما يرى من أهوال يوم القيامة، ثم حسابه بين يدى الله تعالى، ووزن أعماله وتطاير الصحف والمحاسبة على مثاقيل الذرِّ، وأنه وجد ما عمل محصيًّا عليه، محررًا فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه بين رجاء وخوف، إما لِذاتِ اليمين أو لذات الشمال. فلو استشعر المصاب هذه المصائب العظيمة التى بين يديه، وهو غافل عنها غير مستعدّ لها، لشغلته عن مصابه بأحبابه، ولرجع إلى الصبر والرضا بما قدّره وأمضاه؛ فإن قدر على نَفْعٍ نَفَع ميته به، وإلا فلا يؤذيه بما ينهى الشرع عنه من الندب والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب، وغير ذلك من الأفعال والأقوال المكروهة.

والحزن لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله.... لا فى المصيبة ولا فى غيرها، بل قد نهى الله عنه فى كتبه وإن تعلق بأمر الدين. لكن منه محمود ومذموم كقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩].... وقوله: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧].

وما ذاك إلا لأن الحزن لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه... وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به لكن لا يأثم به صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرّم.

فإذا اقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن؛ فالحزين على مصيبة فى دينه، وعلى مصائب المسلمين

عمومًا. فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك. ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نُهى عنه.

الباب الثالث
فى تحريم الندب والنياحة وشق الثياب

الندب: اسم للبكاء على الميت وتعداد محاسنه.... قال الجوهرى، والاسم النُّدبة بالضم، وقيل: تعداد شمائل الميت، فيقال: واكريماه، واجبلاه، والهفاه.

والنوح: قال القاضى عياض: هو اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات.

واعلم - رحمك الله - أن المطلوب فى المصيبة السكون والصبر، والرضا بقضاء الله تعالى والحمد والاسترجاع، والصدقة عن المصاب به والدعاء له؛ وأما الندب والنياحة، وشق الجيوب، ولطم الخدود، وقول المنكر، كل هذا ينافى ما ذكر.

قال **أبو عمر بن عبد البر**: أجمعَ العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء.

فصل: فيما ورد من تحريم ذلك وما ورد من الوعيد عليه

قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»**[١] رواه البخارى ومسلم.

وعن أبى موسى قال: وجع أبو موسى وجعًا، فغشى عليه، ورأسه فى حجر امرأة من أهله فأقبلت تصيح برنة، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا؛ فلما أفاق قال: إنى برىء ممن برئ منه محمد ﷺ .... إن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة[٢]. رواه البخارى ومسلم.

قوله «الصالقة»: يعنى التى ترفع صوتها عند المصيبة، و«الحالقة»: التى تحلق شعرها، و«الشاقة»: التى تشق ثوبها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٧) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٤) كتاب الإيمان، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ورواه البخاري، في كتاب الجنائز من صحيحه معلقًا، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة.

وقال ﷺ : «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال[١] من قطران[٢] ودرع من جَرَب»[٣].

فصل : فيما ورد من عذاب الميت بالنياحة

قال ﷺ : «الميتُ يعذبُ في قبره بما نِيحَ عليه»[٤].

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ميتّ يموت فيقوم باكيهم فيقول: واجبلاه، واسنداه، أو نحو ذلك، إلا وُكل به ملكان يلهزانه: هكذا كنت؟»[٥].

قوله: «يلهزانه». . . . اللهز: الدفع بجميع اليد فى الصدر.

وليُعلم أن البكاء المجرد، ليس فيه منفعة للميت ألبتة، وإنما ينفعه عمله.

قال ﷺ : «يتبع الميتَ ثلاثة: أهله وعمله وماله؛ فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، ويبقى عمله»[٦].

وفى الصحيح: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٧]. فلا منفعة للميت بالبكاء والانزعاج.

قال أبو الفرج بن الجوزى: أما بعد فإنى قد رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجًا يزيد على الحد؛ كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وُضعت! وهل ينتظر الصحيح إلا السقم؟ والكبير إلا الهرم؟ والموجود سوى العدم؟ كما قيل:

على ذا مضى الناسُ اجتماعٌ وفرقةٌ ... وميتٌ ومولودٌ وبشرٌ وأحزان

وما أحسنَ ما روى عن بعض السلف، أن رجلاً جاءه وهو يأكل طعامًا، فقال

---

(١) السِّرْبَال: ثوب طويل.

(٢) القَطِرَان: مادة سوداء لزجة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٢) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٧) كتاب الجنائز، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٥) حسن: رواه الترمذي (١٠٠٣) كتاب الجنائز، وابن ماجه (١٥٩٤) كتاب ما جاء في الجنائز، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٨٨).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥١٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٠) كتاب الزهد والرقاق، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) صحيح، وقد تقدم.

له: قد مات أخـوك، أعظم الله أجرك فيه؛ فـقال: اقعد وكل فـقد علمت ذلك، فقـال: من أعلمك ومـا سبـقنى إليك أحد؟ قـال: قوله تعـالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم قال: وَلَعَمْـرى، إنّ أصل الانزعاج لا يُنكَر، إذ الطبع مجبـول على الجزع من حلول المنايا، وإنما يُنكَر الإفراط فيه والتكلف، كمن يخرق ثيابه ويلبس الثياب المرذولة عند موت قريبه، ويلطم وجهه، ويعترض على القدر.

* والذى ينبغى أولاً لمن غلب على الظنّ أنه يصاب بالموت فى مرضه، أن يعامل بأحسن المعـاملات بما ينفعه فى قـبره ويوم معاده، فـيذكره الآخرة، ويأمره بـالوصية والتوبة، ويلقنه شهادة أن لا إله إلا الله، لتكون آخر كلامه، ويكون مع ذلك فى هذه الحالة، رجاؤه بالله أكثـر من خوفه، وهو كثير الحمـد والاسترجـاع والرضـا عـن الله عز وجل.

* **وأما قـوله** ﷺ: «**إن الميت ليُعـذَّب ببكاء أهله عليـه**»(١)، فاخـتلف السلف والخلف فى ذلك.

فقـالت طائفة: الله يتصـرف فى خلقه بما يشاء، وأفـعال الله لا تعلل؛ لأن الله تعالى خالق الجميع.

وقالت طائفة أخرى: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ وقد أنكرتها عائشة رضي الله عنها واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وفى صحيح البخارى ومسلم أن عائشة رضي الله عنها ذُكر لها أن عمر وابنه عبدالله يقول: إن الميت ليعـذب ببكاء الحى. قالت: إنكم لتحدثونى عن غـير كاذبين ولا متـهمين، ولكن السمع يخطئ.

وقالت طائفة أخرى: وهو محمول على من سنتُه وسنة قومه البكاءُ والنَّوح، وقد اشتهر أن هذا معروف منهم؛ فإذا لم ينههم دخل فى الوعيد؛ لأن ترك نهيه عن البكاء دليل على رضائه به منهم. وهذا قول عبد الله بن المبارك.

وقال أبو البـركات بن تيمية - رحـمه الله -: هذا القول هو أصح الأقوال كلها

(١) متفق عليه، وقد تقدم.

وأرجحها؛ لأنه إذا غلب على ظنه فعلهم له، ولم يوصهم بتركه فقد رضى به، وصار كمن ترك النهى عن المنكر مع القدرة عليه؛ فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه، فالله أكرم من أن يعذبه بذلك.

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : وإنكار عائشة رضي الله عنها لذلك بعد رواية الثقات لا يُعوَّل عليه، فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره، ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد جدًّا، خصوصًا فى حق خمسة من أكابر الصحابة، ثم هى محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «**إن الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»(١)؛ فإذا لم يمتنع زيادة الكافر عذابًا بفعل غيره، مع كونه مخالفًا لظاهر الآية، لم يمتنع ذلك فى حق المسلم، إن الله سبحانه، كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله تعالى أعلم.

* واعلم - رحمك الله - أن هذه الأحاديث ليس فيها بحمد الله إشكال، ولا مخالفة لظاهر القرآن، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره؛ فإن النبى ﷺ لم يقل: إن الميت ليعاقب ببكاء أهله عليه أو بنوح أهله عليه، وإنما قال: إنه ليعذب بذلك، والعذاب هو الألم الذى يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعمّ لا يستلزم الأخص.

وقد قال النبى ﷺ : «**السفر قطعة من العذاب**»(٢). وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر. ونص الإمام أحمد على أن الموتى يتأذَّون بفعل المعصية عندهم؛ فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرَّم من لطم الخدود، وتمزيق الثياب، وخمش الوجوه وتسويدها، وقطع الشعر ونتفه، ودعا بدعوى الجاهلية، وكل هذا موجود فى غالب جهال أهل زماننا، فإذا وجدت هذه الأفعال والأقوال على هذا الوجه، حصل للميت الألم فى قبره بذلك، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذا معنى ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٢٩) كتاب الجنائز، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٠٤) كتاب الحج، ومسلم (١٩٢٧) كتاب الإمارة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل: فيما ذكر في النعي

قال العلامة ابن القيم: وكان من هديه ﷺ ترك نعي الميت، بل كان ينهى عنه ويقول: «**وهو من عمل الجاهلية**». انتهى كلامه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والنعي، فإن النعي من عمل الجاهلية»[(١)].

وعن حذيفة قال: إذا متُّ فلا تؤذنوا بي أحدًا؛ إني أخاف أن يكون نعيًا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي[(٢)].

وعن حماد عن إبراهيم أنه قال: لا بأس إذا مات الرجل أن يؤذن صديقه وأصحابه، إنما يُكره أن يُطاف في المجلس، فيقال: أنعي فلانًا، . . . . فهذا من فعل الجاهلية.

وما يفعله الناس اليوم في زماننا من إعلام الناس بالميت، والمناداة له؛ فهو من البدع المنهي عنها، كما ورد في الحديث، فإنه مفضٍ إلى تأخير الميت لأجل اجتماع الناس له، تأخيرًا زائدًا عن الحدّ؛ ويتركون السنة التي من شأنها الإسراع بالجنازة.

وإن كان المراد النعي الذي هو تعداد صفات الميت فيقال: الذي ينبغي أن يقال: لا بأس بالكلمات اليسيرة إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا يحرم، ولا ينافي الصبر، ولا يكون من المنهي عنه، بل قد نص الإمام أحمد - رحمه الله - أن الكلمات اليسيرة من الصدق لا تنافي الصبر الواجب. يؤيد ذلك ما ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»[(٣)].

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٩٨٤) كتاب الجنائز، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٢١١).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٩٨٦) كتاب الجنائز، وابن ماجه (١٤٧٦) كتاب ما جاء في الجنائز، وأحمد (٢٢٩٤٥) باقي مسند الأنصار، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٤٦٢) كتاب المغازي، من حديث أنس رضي الله عنه.

فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه؛ فلما دفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ؟.

وهذا ونحوه من الأقاويل التى تقدمت ليس فيها تسخط على الرب تبارك وتعالى بما قضاه وقدره، ولا ينافى الصبر الواجب، ولا يأثم به قائله، والله أعلم.

الباب الرابع
فيمن فقد ثلاثة من الولد فأكثر

قال البخارى: باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥].

عن أنس رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم من الناس يُتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنْث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحْمته إياهم»**[(١)].

قوله: «لم يبلغوا الحنث»: أى لم يبلغوا سن التكليف الذى يكتب فيه الحنث (أى الإثم).

قال ﷺ: **«لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، فيلج النار إلا تحلَّة القسم»**[(٢)].

قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلمَيْن يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث، إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة. يقال لهم: ادخلوا الجنة. فيقولون: حتى يدخل أبوانا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم»**[(٣)].

وعن أبى سعيد أن النساء قُلْنَ للنبى ﷺ: اجعل لنا منك يومًا، فوعظهنّ وقال: **«أيُّما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كنَّ لها حجابًا من النار»** قالت امرأة: واثنان؟ قال: **«واثنان»**[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٤٨) كتاب الجنائز، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٥١) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٦٣٢) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: رواه النسائي (١٨٧٦) كتاب الجنائز، وأحمد (١٠٢٤٤) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٨٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٢) كتاب العلم، ومسلم (٢٦٣٤) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفى هذه الأحاديث دليل على كون أطفال المسلمين فى الجنة. وقد نقل جماعة من العلماء إجماع المسلمين على ذلك.

قال الماوردى: أما أولاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فالإجماع محقق فى الأطفال على أنهم بالجنة. وأما أطفال من سواهم من المسلمين، فجماهير العلماء على القطع لهم بالجنة. قالوا: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ [الطور: ٢١]. وتوقف بعض المتكلمين منهم، وأشار أنه لا يقطع لهم كالمكلفين... وهو خطأ. ولكنهم مستندون إلى حديث عائشة ﵂ فى الصحيح: توفى صبىٌّ من الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه. فقال ﷺ: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم**»(١). وفى الحديث الآخر: «**إن الغلام الذى قتله الخَضِر طُبِعَ يوم طبع كافرًا**»(٢). أجاب العلماء عن ذلك بأن النبى ﷺ: إنما نهى عائشة عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبى وقاص فى قوله: أعطه إنى لأراه مؤمنًا، قال: «**أو مسلمًا**». قال النووى - رحمه الله - فى شرح مسلم: فيحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين فى الجنة، فلما علم. قال ذلك فى قوله ﷺ: «**ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم**»(٣) وغير ذلك. انتهى كلامه.

وروى الإمام أحمد بإسناده عن شرحبيل بن شفعة قال: سمعت عتبة بن عبد السلمى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل مسلم يُتَوفَّى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث، إلا تلقَّوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٢) كتاب القدر، من حديث عائشة أم المؤمنين ﵂.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦١) كتاب القدر، من حديث أبي بن كعب ﵁.

(٣) صحيح، وقد تقدم.

(٤) حسن: رواه ابن ماجه (١٦٠٤) كتاب ما جاء في الجنائز، من حديث عُتْبَة بن عبدِ السُّلَمِي ﵁، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٧٢).

فصل: في ذكر الأربعة

قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمَيْن يموت بينهما أربعة أولاد إلا أدخلهم الله الجنة». قالوا: يا رسول الله وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، قالوا: يا رسول الله واثنان؟ قال: «واثنان، وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها، وإن من أمتي لمن يدخل بشفاعته الجنة أكثرُ مِنْ مُضَر»[(١)].

وكل حديث من هذه الأحاديث، فيه تسلية للأمة عن أولادها؛ بل تدل بفحوى الخطاب على أن الشارع ﷺ أراد تسلية الوالدين عن أولادهما بما أعدّ الله لهما من الثواب الجزيل على المصيبة والصبر عليها؛ فإن اتفق مع ذلك الرضى بها، وكتمانها عن الخلق، وطلبها وتلقيها بالقبول، كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

• •

الباب الخامس
فيمن أصيب بفقد ولدين

عن أبي حسان - وهو خالد بن علان - قال قلت لأبي هريرة ﷺ: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث يطيب أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم. قال: **«صغاركم دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه** - أو قال: **أبويه** - **فيأخذ بثوبه** - أو قال: **بيده** - **كما آخذ أنا بصَنِفَة ثوبك هذا، فلا يتناهى** - أو قال: **ينتهي** - **حتى يدخله الله وأباه الجنة»**[(٢)]. ورواه الإمام أحمد.

أما قوله ﷺ: «صغاركم دعاميص الجنة». . . . واحدهم: دُعْمُوص، بضم الدال، أي: صغار أهل الجنة.

* * *

(١) ضعيف: رواه أحمد (٢٢١٥٧) باقي مسند الأنصار، من حديث الحارث بن أُقَيْش ﷺ، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢١٢١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الباب السادس
فيمن أصيب بفقد ولد واحد

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ : «**قال الله عز وجل: يا ملك الموت قبضت ولدَ عبدي؟ قبضتَ قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد**»(١).

وعن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابنٌ له، فقال له النبي ﷺ : «**أتحبه؟**» فقال: يا رسول الله أحبَّكَ الله كما أحبه. ففقده النبي ﷺ فقال: «**ما فعل ابن فلان؟**» قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: «**أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟**» فقال رجل: يا رسول الله أله خاصة أو لكلنا؟ قال: «**بل لكلكم**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ : «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله؛ حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»(٣).

قال الحافظ أبو نعيم:.... لما مات ذر بن عمر الهمذاني، وكان موته فجأة أتاه أهل بيته يبكونه، فقال: ما لكم؟ إنا - والله - ما ظُلمنا ولا قُهرنا، ولا ذهب لنا بحق، ولا أخطئ بنا، ولا أُريد غيرنا، وما لنا على الله معتب؛ فلما وضعه أبوه في قبره قال: رحمك الله يا بني، لقد كنت بي بارًّا، ولقد كنت عليك حدبًا، وما بي إليك من وحشة، ولا إلى أحد بعد الله فاقة، ولا ذهب لنا بعز، ولا أبقيت علينا من ذل، وقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك؛ يا ذرُّ لولا هول المطلع ومحشره، لتمنيتُ أن أصير إلى ما صرتَ إليه؛ فليت شعري - يا ذرُّ - ماذا قيل لك؟ وماذا قلت؟ ثم قال: اللَّهم إنك قد وعدتني الثواب بالصبر على ذر؛ اللَّهم فعلى ذر

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٠٢١) كتاب الجنائز، وأحمد (١٩٢٢٦) أول مسند الكوفيين، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٥١٦٨) مسند المكيين، من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٧٥٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٩) كتاب الزهد، وأحمد (٧٧٩٩) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٢٨٠)، وصحيح الجامع (٥٨١٥).

صلواتُك ورحمتُك؛ اللَّهم إنى قد وهبت ما جعلتَ لى من أجر على ذر صلةً منى فاللهم تجاوز عنه، فإنك أرحم به منى؛ اللَّهم إنى قد وهبت له إساءته إلىّ، فهب له إساءته إليك، فإنك أجود منى وأكرم. فلما ذهب لينصرف قال: انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك. والله يرحمنا وإياك.

وعن سلمة قال: لما مات ابن عمر بن عبد العزيز كشف أبوه عن وجهه. وقال: رحمك الله يا بنى، فقد سررت بك يوم بُشِّرت بك، ولقد عمرت مسرورًا بك، وما أتت علىّ ساعة أنا فيها أسر من ساعتى هذه؛ أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

وهذه الأحاديث والآثار أكثر ورودها فى الولد الذى لم يبلغ الحِنْث، ولكن الولد الصالح البالغ أشدُّ مصيبةً على والديه، وأكثر حزنًا وجزعًا، منهما على الولد الصغير؛ خصوصًا إذا كان قد برز فى العلم، أو له برٌّ وإحسان إلى والديه وأقاربه وأصحابه، أو له صفات جميلة وأفعال حميدة. وأين يقع الولد الصغير موقع الكبير فى النفع لوالديه ولغيرهما، إذا كان متصفًا بما ذُكر؟ فهل يستريب عاقل أن الحزن عليه أشد؟ فكذلك أجره أعظم وأكثر.

وروى الطبرانى فى الكبير[1] .... **عن عبد الرحمن بن سمرة قال:** خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا، ونحن فى صُفَّة بالمدينة، فقام علينا فقال: «**إنى رأيت البارحة عجبًا**. . . . (وفى هذا الحديث) **ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه**».

هذا الحديث قد ذكر جماعة من الحفاظ، أن لوائح الصحة ظاهرة عليه، وأن القلب يركَن إلى متنه، . . . . وفى هذا الحديث بشارة عظيمة للأمة عامة، وفيه تطييب خاطر الوالدين على الأطفال خاصة، سواء كان الطفل وُلد قبل إسلام والده أو بعده.

ويؤيد ذلك ما ثبت أن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة»[2].

قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالولدان الذين

---

(١) مكتوب فى الأصل: وقال أبو القاسم بن عساكر، وهذا خطأ فالحديث رواه الطبراني في الكبير ورواه الحكيم وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٠٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٨٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٦٥٨) كتاب القدر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يتوفَوْنَ على ما فطرهم الله عليه من التوحيد، هم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه ولا خيرٍ قدموه، وهذا من رحمة الله لهم ومِنَّته عليهم. بل أعظم من هذا، أنهم يشفعون فى آبائهم، ولهذا يكونون فى البرزخ فى كفالة أبيهم إبراهيم الخليل - عليه السلام - كما ثبت فى الصحيح فى حديث المنام الطويل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم؛ فعُلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠]. . . . فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التى فطر الناس عليها.

فصل : فى التأسى ببعض ما كان يفعله الصحابة والتابعون إذا نزلت بهم المصائب

ولم تُصَب امرأة فى الوجود، بما أصيبت به فاطمة رضي الله عنها التى هى سيدة نساء أهل الجنة؛ فإنها أصيبت بموت أبيها رسول الله ﷺ ، ولم تقل فى هذه الحال العظيمة إلا قولاً صدقًا محفوظًا عنها، فإنها قالت: يا أبتاه من ربه ما أدناه. يا أبتاه إلى جبريل أنعاه! يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه! يا أبتاه جنة الفردوس مأواه،[1]. . . فالذى ينبغى لنا التأسِّى بسادات المسلمين من الرجال والنساء[2].

مات لرجل من السلف ولدٌ فعزاه سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد، وآخرون، وهو فى حزن شديد، حتى جاءه الفضيل بن عياض فقال: يا هذا أرأيت لو كنت فى سجن وابنك، فأفرج عن ابنك قبلك، أما كنت تفرح؟ قال: بلى. قال: فإن ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك؛ قال: فسُرِّيَ عن الرجل. وقال: تعزَّيت. . . ورواه الحافظ ابن عساكر.

وقال ﷺ : «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله،

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٨٤٤) كتاب الجنائز، وابن ماجه (١٦٣٠) كتاب ما جاء في الجنائز، والدارمي (٨٧) في مقدمة سننه، وأحمد (١٢٦١٩) باقي مسند المكثرين، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن النسائي.

(٢) فى الحقيقة إن المسلمين جميعًا أصيبوا بفقد النبي ﷺ وليست ابنته فاطمة وحدها رضي الله عنها.

وما عليه خطيئة»[١].

ولما حضرت أبا هريرة ﷺ الوفاةُ بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: يبكيني بُعد السفر وقلةُ الزاد، وضَعفُ اليقين، والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاةُ قال: أجلسوني فأجلسوه. فقال: اللَّهم أنا الذي أمرتني فقصّرت، ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت لا إله إلا أنت.

وذكر محمد الطائي الهمذاني في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين ذكر بإسناده إلى المزني قال: دخلت على الشافعي - رحمه الله - في مرضه الذي مات فيه. فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولسوء فعلي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله عز وجل واردًا، فوالله ما أدري أروحي تسير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم بكى وأنشد:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوُك أعظما

فما زلتَ ذا عفوٍ من الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منَّةً وتَكَرُّما

فلولاك لم يقوَ بإبليس عالمُ ... وكيف وقد أغوى ضعيفك آدما؟

وعن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: **«خمس بَخٍ بَخٍ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يموت للرجل فيحتسبه»**[٢].

قال ﷺ: **«يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيَّهُ من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة»**[٣].

وعن ابن عباس ﷺ **أنه سمع رسول الله** ﷺ **يقول: «من كان له فَرَطان من**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٩) كتاب الزهد، وأحمد (٧٧٩٩) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٨١٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢١٦٧٤) باقي مسند الأنصار، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٢٠٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤) كتاب الرقاق، من حديث أبي هريرة ﷺ.

أمتي، أدخله الله بهما الجنة». فقالت عائشة رضي الله عنها: فمن كان له فرط من أمتك. قال: «ومن كان له فرط يا موفقة».

قالت: فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: **«فأنا فرط أمتي لن يصابوا بمثلي»**[١].

والمقصود أن من لم يصب في أولاده، أو لم يكن له أولاد، فالنبي صلى الله عليه وسلم فرطه، لكن أهل المصائب أيضًا يشاركونهم في النبي صلى الله عليه وسلم فيحصل لهم أجر من جهتين؛ وقد يحصل للشخص أجرٌ من جهات عديدة من موت وحريق ونهب وغير ذلك، مما يكفر الله به السيئات ويرفع به الدرجات.

* * *

الباب السابع
في ذكر السقط وثوابه، وزيارة القبور

عن معاذ رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«والذي نفسي بيده إن السقط ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا احتسبته»**[٢].

فصل: في زيارة القبور

زيارتها مستحبة وهي تُذكر الآخرة، وتفرح الموتى بما يحصل لهم من الأحياء، من قراءة واستغفار ودعاء وصدقة ونحو ذلك؛ فزيارة القبور فيها نفع للأحياء والأموات.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما **قال:** أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: **«كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»**. وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٣].

وقد نص الإمام أحمد - رحمه الله - على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (١٠٦٢) كتابا لجنائز، وأحمد (٣٠٨٨) ومن مسند بني هاشم، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٨٠١).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه (١٦٠٩) كتاب ما جاء في الجنائز، وأحمد (٢١٥٨٥) مسند الأنصار رضي الله عنهم، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٠٦٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق.

ويُستحبُّ الإكثارُ من ذكر الموت.... قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[(١)]. يعني الموت.

وكان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. نسأل الله لنا ولكم العافية[(٢)].

وقال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تُرق القلب وتُدمع العين وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هُجراً»[(٣)].

وفى رواية: «فزوروها، فإنها تزهِّد فى الدنيا، وتذكر الآخرة»[(٤)].

وفيه دليل لمن جوَّز زيارة القبور للنساء.

وللعلماء فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: تحريمها عليهن لحديث: «لعن الله زوَّارات القبور»[(٥)].

الثاني: يُكره.

والثالث: يباح لما تقدم؛ فالنساء يدخلن فى خطاب الرجال على الصحيح عند الأصوليين.

الباب الثامن
فى تطييب خاطر الوالدين على الأولاد

ذكر البغوى فى تفسيره بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يرفع ذرِّية المؤمن فى درجته وإن كانوا

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٨٢٤) كتاب الجنائز، والترمذي (٢٣٠٧) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤٢٥٨) كتاب الزهد، وأحمد (٧٨٦٥) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٦٠٧)، وصحيح الجامع (١٢١٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح: رواه النسائي (٢٠٣٣) كتاب الجنائز، من حديث بريدة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٤٧٤) و(٤٥٨٤).

(٤) ضعيف: رواه ابن ماجه (١٥٧١) كتاب ما جاء في الجنائز، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٢٧٩).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (١٠٥٦) كتاب الجنائز، وابن ماجه (١٥٧٦) كتاب ما جاء في الجنائز، وأحمد (٨٢٤٤) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥١٠٩).

دونه فى العمل لتقرَّ بهم عينه»[1]، ثم قرأ النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

ففى هذه الآية والحديث دليل على تطييب خاطر الوالدين على أطفالهم، وهذا الذى ينبغى.

وقال البغوى فى تفسيره: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ اختلفوا فيهم، فعن علىّ أنهم أطفال المسلمين، وهذا يوافق ما رواه العقيلى عنه، ولم يَحْكِ عنه خلافَه؛ ثم قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم الملائكة. وقال مقاتل: هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق. وعنه أيضًا: هم الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم. وعنه أيضًا: هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون.

فصل: فى معنى الفطرة التى نشأ عليها كل مولود من بنى آدم من ذكر وأنثى

وقد اختلف بعض العلماء والمفسرون فى المعنى المراد بالفطرة على أقوال:

أحدها: أن المراد بالفطرة: الإسلام، . . . قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما.

قال القرطبى: وفى معنى الفطرة أقوال متعددة منها دين الإسلام، وهو المعروف عند عامة السلف، ثم قال: ومعنى هذا أن الطفل خلق سليمًا من الكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه. وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا فهم فى الجنة، أولادَ مسلمين كانوا، أو أولاد كفار.

وقال النقاش فى تفسيره: وقد اختلف أهل التأويل والأخبار فى الفطرة، فقيل: على ملة إبراهيم. . . . ثم ذكر قريبًا مما ذكره القرطبى.

الثانى: أن المراد بالفطرة: البداءة التى بدأهم الله عليها، من أنه ابتدأهم للحياة والموت، والسعادة والشقاوة.

الثالث: ليس المراد بالفطرة عموم الناس إنما المراد بقوله: فطر الناس: المؤمنون، إذ لو فطر الجميع على الإسلام، لما كفر أحد، وقد ثبت أنه خلق أقوامًا للنار كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٢٦٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٤٩٠).

الرابع: أن المراد بالفطرة الخِلْقَة التى خُلق عليها المولود فى المعرفة بربه.

واحتج من قال بهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ [يس:٢٢].

والمقصود أن الوِلْدَانَ يُتوفَّون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد والإسلام؛ فهم من سعداء الآخرة، الذين استحقوا دخول الجنة بلا عمل عملوه، ولا خير قدموه، بل برحمة الله عليهم، ولطفه بهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾ [الحديد: ٢١]

* * *

الباب التاسع
فيمن مات له طفل رضيع أنه يكمل رضاعه فى الجنة

عن عدى بن ثابت أنه سمع البراء أنه قال: لما توفى إبراهيم - يعنى ابن النبى ﷺ - قال رسول الله ﷺ: «**إن له مرضعًا فى الجنة**»(١).

وفى بعض الروايات: «**إن ابنى مات فى الشدى، وإن له مرضعًا فى الجنة**»(٢). فإن كان هذا خاصًّا به عليه السلام فلا كلام، والأصل عدم الاختصاص إلا أن يقوم دليل عليه ولم نجده؛ وإن كان عامًّا فى حق أولاد المؤمنين - كما ذكر فى بعض الآثار، ولا يحضرنى الآن، ولكن متنه: «**إن فى الجنة شجرة تحمل الشدى يرتضع فيها الولدان**» - فهى بشارة عظيمة للمؤمنين فى ولدانهم وفيه تطييب خاطر الوالدين، والله تعالى أعلم.

الباب العاشر
فى أنه يُصلى على كل مولود مسلم ويدعى لوالديه

وجمهور العلماء على أنه يصلَّى على الطفل الصغير، وإن كان سِقطًا قد نفخ فيه الروح؛ وذهب بعض السلف إلى أنه لا يصلى على الصغير ما لم يحتلم. وسنذكر ما يدفع هذا القول ويضعفه.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٨٢) كتاب الجنائز، من حديث البراء ﷺ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣١٦) كتاب الفضائل، من حديث أنس ﷺ.

قال ﷺ: «الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي يمشى خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها قريبًا منها والسِّقط يُصلَّى عليه، ويُدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة»(١).

قال الحافظ الضياء وقيل: يُصلَّى على الطفل إذا نُفخ فيه الروح، استهلَّ أو لم يستهلَّ.

قلت: وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد، أنه يصلى عليه إذا نفخ فيه الروح، وهو أن يستكمل أربعة أشهر.

قال الشيخ مجد الدين: وإن أسقط لدون أربعة أشهر، فلا يُصَلَّى عليه؛ لأنه ليس بميت، إذْ لم ينفخ فيه الروح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصلاة على السقط ما لم ينفخ فيه الروح، مبنية على بعثه؛ وللعلماء فيه قولان؟ فإن قلنا: إنه يبعث صُلِّى عليه؛ وإلا لم يُصلَّ عليه، والله أعلم. انتهى كلامه.

وقيل: إن السقط ليس بميت؛ لأنه لم ينفخ فيه الروح.

يؤيد ذلك ما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجْمَعُ خلقُه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك؛ ثم يكون مضغة مثل ذلك؛ ثم يبعث الله إليه ملكًا ويؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»(٢). فإذا نفخ فيه الروح وجبت الصلاة عليه، وبُعث يوم القيامة.

* * *

الباب الحادى عشر
فى استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة

وهذا الفعل من محاسن الشريعة التى جاء بها النبى ﷺ إن أهل الميت لا يتكلفون طبخ طعام لأحد من الناس؛ لأنهم فى شغل بمصابهم عن إصلاح طعام

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣١٨٠) كتاب الجنائز، وأحمد (١٧٧٠٩) أول مسند الكوفيين، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٦٦٧)، وصحيح الجامع (٣٥٢٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

لأنفسهم، فكيف للناس والاهتمام بأمرهم؟ فإذا صنع الناس لهم الطعام المعروف، وحملوه إليهم، حصلت الراحة لأهل الميت من وجهين:

أحدهما: شغلهم بمصابهم.

الثاني: عدم الخسارة.

وقد وردت السنة بصنع الطعام لأهل الميت، فقد حصلت البشارة لمن صنع لهم طعامًا، وحمله إليهم، أنه اتبع سنة رسول الله ﷺ وامتثل أمره.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: جاء نعي جعفر رضي الله عنه حين قُتل قال النبي ﷺ: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا فإنه قد أتاهم ما يشغلهم**»(١).

* * *

الباب الثاني عشر
في الذبح عند القبور
وكراهة صنع الطعام من أهل المصيبة

قال رسول الله ﷺ: «**لا عَقْر في الإسلام**»(٢). . . . أي: لا ذبح عند القبر.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: «**لا عقر في الإسلام**». قال الخطابي: هو ما كان عليه أهل الجاهلية، من عقر الإبل على قبور الموتى؛ كانوا إذا مات الشريف الجواد عقروا عند قبره؛ وكانوا يقولون: إن صاحب القبر كان يعقرها للأضياف، يقربهم أيام حياته، فيكافأ عليه بمثل صنيعه. انتهى كلامه.

وأما صنع أهل الميت طعامًا للناس فمكروه؛ لأن فيه زيادة على مصيبتهم، وشغلاً لهم إلى شغلهم، وتشبيهًا بصنع أهل الجاهلية. فهذا من النياحة التي نهى عنها رسول الله ﷺ.

لما ثبت في مسند الإمام أحمد من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٣١٣٢) كتاب الجنائز، والترمذي (٩٩٨) كتاب الجنائز، وابن ماجه (١٦١٠) كتاب ما جاء في الجنائز، من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٠١٥).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٢٢) كتاب الجنائز، وأحمد (١٢٦٢٠) باقي مسند المكثرين، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٦)، وصحيح الجامع (٧٥٣٥).

نعد الاجتماع إلى أهل الميت، وصنعه الطعام بعد دفنه، من النياحة[١]. رواه ابن ماجه.

قلت: وإذا دعت الحاجة إلى صنع الطعام من أهل الميت، لمن يفد من القرى ونحوها إنما ذاك بشرط أن لا يكون من مال الأيتام، خصوصًا إذا لم يكن لليتيم سوى ذلك الحيوان. فأما وفود أهل البادية على أهل الميت في قريتهم، فالضيافة على أهل القرية إما واجبة أو مستحبة، وليست على أيتام الميت، والله تعالى أعلم.

* * *

الباب الثالث عشر
فى الثناء الحسن على الميت
وذكر محاسنه والسكوت عن مساويه

واعلم أن من أطلق الله ألسنة الناس فيه بالخير، والثناء الحسن والذكر الصالح، وغير ذلك من الأقوال الصالحة غلب على الظن أنه من أهل الخير. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

وثبت أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء؛ ثم يوضع له القبول فى الأرض»[٢]. وذكر فى البغضاء مثل ذلك.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه **قال**: مُرَّ بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**وَجَبَتْ**». ومُرَّ بجنازة فأثنوا عليها شرًّا، فقال نبى الله ﷺ: «**وجبت**». فقال عمر رضي الله عنه: فداك أبى وأمى يا رسول الله، مرّ بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقلت: وجبت، ومرّ بجنازة فأثنوا عليها شرًّا، فقلت: وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة؛ ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار؛ أنتم شهداء الله فى**

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٦١٢) كتاب ما جاء في الجنائز، وأحمد (٦٨٦٦) مسند المكثرين من الصحابة، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض» ثلاثًا، وفى لفظ: **«وجبتْ وجبت»** ثلاثًا[(١)].

قال عبد الوهاب الوراق: ما بلغنا أن جمعًا فى جاهلية ولا إسلام مثل الجمع فى جنازة أحمد، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف، وأما النساء فنحو من ستين ألف امرأة؛ وكلهم يشهدون له بالصلاح والولاية، ويرجون بالصلاة عليه البركة، ويثنون عليه بأنواع الخير، رحمة الله عليه.

وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: تلك عاجل بشرى المؤمن». وفى رواية: **«ويحبه الناس عليه»**[(٢)]. قال العلماء: معناه: هذه البشرى المعجلة له بالخير هى دليل للبشرى المؤخرة إلى الآخرة لقوله تعالى: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ [الحديد: ١٢]، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضى الله تعالى عنه، ومحبته له ومحبته إلى الخلق.

فصل: فى الكف عن ذكر مساوى الأموات

عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبُّوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا»**[(٣)].

وقال ﷺ: «من غسّل ميتًا فستره، ستره الله من الذنوب. ومن كفَّنه كساه الله من السندس...»[(٤)].

وقال ﷺ: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير»[(٥)].

* * *

الباب الرابع عشر
فى فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد ﷺ

اعلم أن لله علينا من النعم ما لا يحصيها إلا الله تعالى الذى هدانا للإسلام،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي ذر ؓ.

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٣) كتاب الجنائز.

(٤) حسن: رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨١)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٣٥٣).

(٥) صحيح: رواه النسائي (١٩٣٥) كتاب الجنائز، من حديث عائشة ؓ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٢٧١).

وجعلنا من أمة خير الأنام.

قال رسول الله ﷺ : «أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»(١).

وقال رسول الله ﷺ : «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»(٢).

وقال رسول الله ﷺ : «وعدنى ربى عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربى عز وجل»(٣).

* * *

الباب الخامس عشر فى استحباب التعزية لأهل المصيبة والدعاء لميتهم

يقال: عزَّى الرجل عزاء، إذا صبَّره على ما نابه، والتعزية: التصبُّر، وعزيته: أمرتُه بالصبر.

عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدّه عن النبى ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه الله - عز وجل - من حلل الكرامة يوم القيامة»(٤).

والمقصود من التعزية: تسلية أهل المصيبة وقضاء حقوقهم، والتقرب إليهم بقضائها، قبيلَ الدفن وبعده، لشغلهم بمصابهم.

* ويستحب تعزية أهل الميت، وهى مسألة متفق عليها ولم أعلم أن أحدًا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٦) كتاب الإيمان، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٤٦) كتاب صفة الجنة، وابن ماجه (٤٢٨٩) كتاب الزهد، والدارمي (٢٨٣٥) كتاب الرقاق، وأحمد (٢٢٤٣١) باقي مسند الأنصار، من حديث بريدة ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٣٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وابن ماجه (٤٢٨٦) كتاب الزهد، من حديث أبي أُمامة الباهلي ﷺ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧١١١).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه (١٦٠١) كتاب ما جاء في الجنائز، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٩٥).

خالف فيها إلا سفيان الثورى - رحمه الله - قال: لا تستحب التعزية بعد الدفن؛ لأنها خاتمة أمره؛ والمعروف المستقرّ عند أهل العلم استحباب التعزية، قبل الدفن وبعده.

* ويستحب تعزية جميع أهل المصيبة كبارهم وصغارهم، ولا يعزى الرجل الأجنبى شوابّ النساء مخافَة الفتنة.

وثبت أن عائشة رضي الله عنها نهت عن الضحك فى المصيبة؛ لأن فيه إشماتًا بالمسلم، وكسرًا لقلبه، ولهذا رأى الإمام أحمد رجلاً يضحك فى جنازة فهجره. وقال: أى موعظة اتّعظ هذا؟

* وما يفعله غالب أهل زماننا من الجلوس عند القبر يوم الدفن للتعزية، وكذلك فى اليوم الثانى والثالث.

قال أبو الخطاب: يُكره الجلوس للتعزية. وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: يكره التعزية عند القبر، إلا لمن لم يعزِّ، فيعزىْ إذا دفن الميت، أو قبل أن يدفن.

قلت: إن كان الاجتماع فيه موعظة للمعزى بالصبر والرضى، وحصل له من الهيئة الاجتماعية تسلية، بتذاكرهم آيات الصبر وأحاديث الصبر والرضى، فلا بأس بالاجتماع على هذه الصفة؛ فإن التعزية سنة سنها رسول الله ﷺ لكن على غير الصفة التى تُفعل فى زماننا، من الجلوس على الهيئة المعروفة اليوم لقراءة القرآن، تارةً عند القبر فى الغالب، وتارة فى بيت الميت، وتارة فى المجامع الكبار؛ فهذه بدعة محدثة، كرهها السلف كما تقدم؛ لكن فيها تسلية لهم، وإشغال لهم عن الحزن، والله أعلم.

* **وقد ذكر الشيخ موفق الدين وغيره من أصحابنا فى غالب الكتب**: أن التعزية تجوز قبل الدفن وبعده، وأنه يقول فى تعزية المسلم للمسلم: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، ورحم ميتك، وفى تعزية الكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك.

وتوقف أحمد - رحمه الله - عن تعزية أهل الذمة؛ وهى تخرج على عيادتهم فى أمراضهم، وفيها روايتان:

إحداهما : يعودهم؛ (أي يزورهم) لأنه روى أن غلامًا من اليهود كان يخدم النبي ﷺ فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه، وهو عند رأسه، فقال: أطع أبا القاسم فأسلم؛ فقام النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١). ولكن الحكمة في العيادة منتفية في التعزية وهو رجاء إسلامه، والله تعالى أعلم.

والرواية الثانية : لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا تبدؤوهم بالسلام**»(٢).

* ومن بلغه وفاة أحد من المؤمنين فليحسن الاسترجاع والتثبت.

ففي حديث أبي سلمة: لما مات شَقَّ بصرُه فأغمضه النبي ﷺ ثم قال: «**إن الروح إذا قُبض تبعه البصر**» فصاح ناس من أهله، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون.** ثم قال: **اللَّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونَوِّر له فيه**»(٣).

فصل
فيما نقل إلينا من ألفاظ التعزية عن السلف والخلف

قال زيد بن أسلم: مات ابن لدواد - عليه السلام - فجزع عليه؛ فعزوه فيه، فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: كان أحب إليّ من ملء الأرض ذهبًا؛ فقيل له: فإن لك من الأجر على قدر ذلك.

وفي الإسرائيليات : أن سليمان بن داود - عليه السلام- مات له ولد، فجزع عليه حتى عرف ذلك في مصابه؛ فتحاكم إليه ملكان في صورة رجلين، فقال أحدهما: إن هذا بذر بذرًا في طريق الناس، فمررت فأفسدته؛ فقال سليمان للآخر: لمَ بذرت في الطريق؟ أما علمت أنه لابدّ من ممرّ؟ فقال: ولمَ تحزن أنت على ابنك، وهذا طريق الناس إلى الآخرة؟

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٥٦) كتاب الجنائز، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٢٠) كتاب الجنائز، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما **قال:** أرسلت ابنةُ النبى ﷺ إليه، أن ابنًا لى قد قُبض فَأْتِنَا؛ فأرسل يُقْرِئ السلام، ويقول: «**إن لله تعالى ما أخذ وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب**»(١). ورواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه.

وقال الحسن البصرى - رحمه الله -: ما من جرعتين أحبُ إلى الله، من جرعةِ مصيبة موجعة محرقة، ردّها صاحبُها بحسن عزاء وصبر؛ وجرعةِ غيظ، ردّها صاحبها بحِلم.

وعزى ابن السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر، فَبِه يعملُ من احتسب، وإليه يصير من جزع.

وروى البيهقى بإسناده فى مناقب الشافعى - رحمه الله -: أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن، فجزع عليه جزعًا شديدًا، فبعث إليه الشافعى يقول له: يا أخى عزِّ نفسك بما تعزى به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فَقْدُ سرورٍ وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وِزر؟ فتناول حظك يا أخى إذا قرب منك، قبل أن تطلبه وقد تناءى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبرًا، وأحرز لنا بالصبر أجرًا، ثم أنشده:

إنى معزِّيك لا أنى على ثقة ... من الخلود ولكن سنةُ الدينِ

فلا المعزَّى بباقٍ بعد ميِّته ... ولا المعزِّى ولو عاشا إلى حينِ

وذكر عن سليمان بن حَبيب قال: لما مات عبد الله بن عمر بن عبد العزيز دخل عليه هشام فعزاه عنه، فقال عمر: وأنا أعوذ بالله أن يكون لى محبةٌ فى شىء من الأمور تخالف محبة الله - عز وجل - فإنّ ذلك لا يصلح لى فى بلائه عندى، وإحسانه إلىّ.

وقد روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد عن القاسم قال: هلكت امرأة لى، فأتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى بها، فقال: إنه كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها معجبًا ولها محبًّا؛ فماتت

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

فوجَد عليها وجدًا شديدًا، وتأسف عليها تأسفًا شديدًا؛ حتى خلا فى بيت، وأغلق على نفسه واحتجب؛ وإنَّ امرأة سمعت به فجاءته، فقالت: إنّ لى إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزينى إلا مشافهته، فذهب الناس ولزمت بابه. وقالت: ما لى منه بُدٌّ؛ فقال له قائل: إن ها هنا امرأة أرادت أن تستفتيك. قال: ائذنوا لها فدخلت، فقالت: إنى استعرت من جارة لى حليًا، «أى ذهبًا» وكنت ألبسه وأعيره، فلبث عندى زمانًا، ثم إنهم أرسلوا إلىَّ فيه، أفأردُّه إليهم؟ قال: نعم. قالت: إنه مكث عندى زمانًا؟ قال: فذاك أحق لردّك إياه إليهم. قالت: أفتتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك، وهو أحق به منك؟. . . . فأبصر ما هو فيه، ونفعه الله تعالى بقولها.

وعزى عمرو بن عبيد يونسَ بن عبيد على ولد له مات، فقال: إن أباك كان أصلك، وإن ابنك كان فرعك، وإن امرءًا ذهب أصله وفرعه لَحَرِىٌّ أن يَقِلَّ بقاؤه.

وعزى صالحُ المرى رجلاً قد ماتْ ولده، فقال: إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة فى نفسك؛ فنعم المصيبة مصيبتك؛ وإن كانت لم تحدث لك عظة فى نفسك؛ فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك.

وذكر الحافظ ابن عساكر قال إبراهيم بن خالد: كتب محمد بن إدريس الشافعى إلى رجل من إخوانه من قريش، يعزيه بابن أصيب به فقال: اعلم يا أخى أنّ كل مصيبة لا يجبر صاحبها ثوابها فهى المصيبة العظمى، فكيف رضيت يا أخى بابنك فتنة، ولم ترض به نعمة؟ وكيف رضيت به مفارقًا، ولم ترض به خالدًا؟ وكيف رضيته على التعريض من الفساد، ولم ترض به على اليقين من الصلاح؟ بل كيف لك بمقت منعم ولم تعرف له نعمة؟ يُريك ما تحب، ويَرى منك ما يكره؟ ارجع إلى الله - عز وجل - وتعزّ برسول الله ﷺ وتمسَّكْ بدينك، والسلام.

وعن عبد الله بن صالح العجلى قال: كتب ابن السماك إلى رجل يعزيه عن مولود له مات: أما بعد، فإن استطعت أن يكون شكرك حين قبضه الله - عز وجل -

منك، أكثر منك حين وهبه لك فافعل؛ فقد أحرز لك هبته حيث قبضه؛ ولو بقى لم تسلم من فتنته، أرأيت حزنك على فراقه، وتلهُّفك على ذَهَابه! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك؛ أما هو فقد خلص من الكدَر وبقيت أنت معلقًا بالخطر؛ والمصيبة إن جزعت، فهى واحدة إن صبرتَ، ومصيبتان إن لم تصبر، فلا تجمع الأمرين على نفسك، والسلام.

وكتب رجلٌ إلى بعض إخوانه يعزِّيه بابنه: أما بعد، فإن الولد على والده ما عاش حزن وفتنة، فإذا قدّمه فصلاة ورحمة؛ فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته ولا تضيّع ما عوضك الله من صلاته ورحمته.

وقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دفن ابنًا فضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند قبره؟! قال: أردت أن أرغم الشيطان.

* * *

الباب السادس عشر
فى وجوب الصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ [محمد: ٣١]. والآيات التى فيها الأمر بالصبر كثيرة جدًّا ومعروفة.

قال الإمام أحمد: ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر فى القرآن فى تسعين موضعًا.

وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه **قال:** مرَّ النبى صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكى عند قبر، فقال: **«اتقى الله واصبرى»**، فقالت: إليك عنى، فإنك لم تصب بمصيبتى - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبى صلى الله عليه وسلم فأتت باب النبى صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم

أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**». رواه البخارى ومسلم. وفى رواية: تبكى على صبىٍّ لها. فقال: «**إنما الصبر عند أول الصدمة**»[(١)].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله ــ عز وجل ــ: ما لعبدى المؤمن عندى جزاءٌ إذا قبضت صفيَّهُ من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا فى وجوب الرضا. انتهى كلامه.

فالصبر واجب من حيث الجملة، ولكنه يتأكد بحسب الأوقات، فهو فى زمن الطاعون آكد منه فى غيره، فإنه إذا صبر على الإقامة فى البلد الذى وقع فيه الطاعون، وصبر عند موت أولاده أو أقاربه أو أصحابه، وصبر أيضًا عند مصيبته بنفسه، وعلم يقينًا أن الآجال لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله تعالى كتب الآجال فى بطون الأمهات، كما ثبت فى الصحاح: «**كتب رزقه وأجله، وشقىٌّ هو أم سعيد**»[(٣)]، فلا زيادة ولا نقص إلا فى صلة الأرحام، ففيها خلاف معروف بين أهل العلم؛ فإذا صبر واحتسب لم يكن له ثواب دون الجنة، وإذا جزع ولم يصبر أثم وأتعب نفسه ولم يَرُدَّ من قضاء الله شيئًا. ولقد ضمن الوافى الصادق الناطق فى محكم كتابه، حيث قال عن الصابرين: أنهم يُوَفَّونَ أجرهم بغير حساب. وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣] فذهب الصابرون بهذه المعية التى هى خير الدنيا والآخرة، وشارك بعض الأنبياء فى قوله: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** (٤٦)﴾ [طه: ٤٦]، وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله خبراً مؤكداً، فقال تعالى: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** (١٢٦)﴾ [النحل: ١٢٦]، وأخبر أن الصبر مع التقوى لا يضرّ معه كيد الأعداء أبدًا. فقال: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** (١٢٠)﴾ [آل عمران: ١٢٠].

* * *

(١) متفق عليه، وقد تقدم.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤) كتاب الرقاق، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٥٤) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الباب السابع عشر
فيما ورد فى الصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧]

وقال ﷺ: «.... والصبر ضياء....»[(١)].

وقال ﷺ: «.... ومن يتصبر يصبره الله وما أُعطى أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خيرٌ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله - عز وجل - قال: إذا ابتليتُ عبدى بحبيبتيه ثم صبر، عوضتُه منهما الجنة»[(٤)] - يريد عينيه.

وعن عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس رضي الله عنهما ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أُصرع وإنى أتكشّف، فادعُ الله تعالى لى فقال: «إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك»، فقالت: أصبر؛ ثم قالت: إنى أتكشف فادعُ الله أن لا أتكشف؛ فدعا لها[(٥)].

وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَب

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٦٥٣) كتاب المرضى، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٥٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧٦) كتاب البر والصلة والآداب.

ولا وَصَب ولا هم ٍ ولا حَزَنَ، ولا أذى ولا غَمٍّ حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه»[١] .

الهمّ على المستقبل، والحزن على الماضى، والنصب: التعب، والوصب: المرض.

وقال ﷺ : «**المؤمن الذى يخالط الناس ويَصْبِر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[٢] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه **قال**: قال رسول الله ﷺ : «**من يُرِدِ الله به خيراً يُصبْ منه**[٣]»[٤] .

وروى سعيد بن منصور فى سننه .... أن ابن عباس رضي الله عنهما نُعى إليه أخُوه (قثم) وهو فى سفر، فاسترجع، ثم تنحّى عن الطريق، فأناخ ثم صلى ركعتين، فأطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته، وهو يقول: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه **قال**: دخلت على النبى ﷺ وهو يُوعَك، فقلت: يا رسول الله إنك توعَك وعكًا شديداً. قال: «**أجل إنى أُوعك كما يوعك الرجلان منكم**»، قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أجلٍ ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكةٌ فما فوقها، إلا حطّ الله له به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**»[٥] .

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه **قال**: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بردةً له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَنْ قبلكم يُؤخذ الرجل، فيُحفر له فى الأرض، فيُجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه؛ والله**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٠٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وابن ماجه (٤٠٣٢) كتاب الفتن، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٣٩)، وصحيح الجامع (٦٦٥١).

(٣) أي: يبتليه بالمصائب ليطهره من الذنوب.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٦٤٥) كتاب المرضى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٨) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة والآداب.

لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه؛ ولكنكم تستعجلون»[(١)].

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السَّخط»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى، وما عليه خطيئة»[(٣)].

وعن عطاء بن يسار أن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبدُ بعث الله إليه ملكين فقال: انظرا ماذا يقول لعُوَّاده -أي لزواره- فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه، رفَعا ذلك إلى الله - وهو أعلم - فيقول: لِعبدي عليَّ إن توفيتُه أن أدخله الجنة؛ وإن أنا شفيتُه أن أبدله لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاته»[(٤)].

* * *

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٤٣) كتاب الإكراه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٦) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤٠٣١) كتاب الفتن، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٩) كتاب الزهد، وأحمد (٧٧٩٩) باقي مسند المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٢٨٠).

(٤) حسن لغيره: رواه مالك في الموطأ (١٧٥٠) كتاب الجامع، مرسلاً، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٣١)، وقال: حسن لغيره.

فصل : فى كلام السلف عن الصبر

قال على بن أبى طالب ﷺ: الصبر ثلاثة: صبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية؛ فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتبت له ثلاثمائة درجة؛ ومن صبر على الطاعة كتب له ستمائة درجة؛ ومن صبر عن المعصية كتبت له تسعمائة درجة.

وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نُهوا عنه.

ومرض أبو بكر فعادُوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآنى الطبيب، قالوا: فأىٌّ شىء قال لك؟ قال: إنى فعَّالٌ لما أريد. رواه أحمد.

وقال علىٌّ بن أبى طالب: ألا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته، فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه منه.

وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل وقت، فينظر فيها وفيها مكتوب ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وذكر أبو الفرج بن الجوزى فى عيون الحكايات قال الأصمعى: خرجت أنا وصديق لى إلى البادية فضللنا الطريق؛ فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها فسلمنا؛ فإذا امرأة ترد علينا السلام قالت: ما أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق، أتيناكم فأنسنا بكم، فقالت: يا هؤلاء ولُّوا وجوهكم عنى. حتى أقضى من حقكم ما أنتم له أهل؛ ففعلنا فألقت لنا مِسْحًا فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتى ابنى؛ ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردّها إلى أن رفعتها، فقالت: أسأل الله بركة المقبل؛ أما البعير فبعير ابنى، وأما الراكب فليس بابنى؛ فوقف الراكب عليها، فقال: يا أمَّ عقيل أعظم الله أجرك فى عقيل، قالت: ويحك! مات ابنى؟

قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به فى البئر؛ فقالت: انزل فاقض ذمام القوم؛ ودفعت إليه كبشًا فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام؛ فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها؛ فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكوَّرت، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئًا؟ قلت: نعم. قالت: اقرأ علىَّ من كتاب الله آيات أتعزّى بها. قلت: يقول الله - عز وجل - فى كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] قالت: آلله إنها لفى كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله إنها لفى كتاب الله هكذا. قالت: السلام عليكم، ثم صفَّت قدميها وصلت ركعات، ثم قالت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند الله أحتسب عقيلاً؛ .... (تقول ذلك ثلاثًا)، اللهم إنى فعلت ما أمرتنى به، فأنجز لى ما وعدتنى.

* * *

الباب الثامن عشر
فى أن الشخص لا يستغنى عن الصبر لا فى المصيبة ولا فى غيرها

اعلم - رحمك الله - أن الشخص البالغ العاقل المسلم، ما دام فى دار التكليف، والأقلامُ جارية عليه، لا يستغنى عن الصبر فى حالة من الأحوال؛ فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله، والصبر لابد له منه قولاً وفعلاً؛ وبين نهى يجب عليه اجتنابه وتركه، والصبر لابد له منه؛ وبين قضاء وقدر يجب عليه الصبر فيهما؛ وبين نعمة يجب عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه؛ وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات.

فإن قيل: فهل يجب الصبر على النعم؟

قيل: نعم لأنها من الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ

﴿الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ [محمد: ٣١]، وفى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٦، ١٧]، أى ليس الأمر كذلك، وإنما الله تعالى يبتلى عباده بالغنى والفقر، فينظر من هو المجاهد الشاكر الصابر على ما ابتلاه به، كما يبتلى عباده بالمصائب والأسقام تطهيراً لهم من الذنوب والآثام.

* **ويحتاج العبد إلى الصبر فى ثلاثة أحوال:**

أحدها: قبل الشروع فى العبادات بتصحيح النية والإخلاص، وعقد العزم على توفية المأمور به وتجنب دواعى الرياء والسمعة.

والحالة الثانية: الصبر على حال العمل.

والحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، فيحذر من الإتيان بما يبطله، كما قال تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالصبر على محافظتها بعد الفراغ أنفع ما للعبد. هذا معنى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقال العلامة ابن القيم: وكل ما يلقى العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: موافق هواه ومراده.

والثانى: يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما.

أما النوع الموافق لغرضه، فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة. وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا يحمله عليه البطر والأشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله أهله.

الثانى: أن لا ينهمك فى نيلها.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيُسلبَها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها فى الحرام. . . . أى: لا يصرفها فى الحرام.

وأما النوع الثانى: فأما الطاعة، فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبادات، إلا من وفقه الله.

ومن هذا الباب قول عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء، فلم نصبر.

وإنما كان الصبر على السراء شديداً وشاقًّا على النفس؛ لأنه مقرون بالقدرة على ما تشتهيه النفس وتميل إليه؛ لأن الجائع عند عدم الطعام، أقدرُ منه على الصبر عند حضوره؛ وكذلك الشبق عند غياب المرأة أصبر منه عند حضورها؛ وكذلك العطشان الشديد العطش عند عدم الماء أصبر منه عند وجوده.

* وقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فى كتابه العزيز من فتنة المال، ومن فتنة الأزواج، ومن فتنة الأولاد، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿**أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤]، وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس، أنها عداوة البغضاء والمجادلة، بل عداوة المحبة الصادّة للآباء، عن الهجرة والجهاد وتعليم العلم، وغير ذلك من أعمال البر، هذا معنى ما ذكره العلامة ابن القيم.

فالمقصود أنه من صبر فى السراء عن المعصية، فقد أمِنَ فتنة المال، فإنه قادر على فعل المعصية وبذل المال؛ فلهذا كان له الثواب الجزيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ فإن (مِنْ) هنا للتبعيض باتفاق الناس، والمعنى: إن من الأزواج والأولاد عدوًّا، ليس المراد أن كل زوج وولد عدو. فإنه سبحانه وتعالى قد قال عن عباد الرحمن إنهم يقولون: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾ [الفرقان: ٧٤]، فلو كان كل زوج وولد عدوًّا، لم يكن فيهم قرة أعين. وأيضًا فإنه من المعلوم أن إسماعيل وإسحاق ابنى إبراهيم، ويحيى بن زكريا وأمثالهم ليسوا أعداء.

* * *

الباب التاسع عشر
فى أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر إلى قسمين:

أحدهما : بحسب قوة الداعى إلى الفعل.

الثانى : بسهولته على العبد.

فإذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق، وإن فقدا - معًا - يعنى قوة الداعى وسهولته - سهل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر، فمن لا داعى له إلى قتل النفس والسرقة وشرب الخمر وأكل الحشيشة وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شىء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك، وسهل عليه فعله، فصبره عنه أشق شىء عليه؛ ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشباب عن الفاحشة، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات، منزلتهم عند الله عظيمة عالية منيعة، لا يصل إليها إلا من صبر مثل صبرهم.

ولقد بلغنى عمن أعرفه أنه تاب عن الخمر، وحلف بالطلاق لا يشربه، ثم إنه خالع وشرب.

فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه، صبرٌ عن المعاصى، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به، صبرٌ على الطاعات؛ فإذا فعل ذلك، ابتغاء وجه الله تعالى، ثوابه أن يوفَّى أجره بغير حساب.

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «سبعةٌ يُظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عدل - وفى رواية: **عادل - وشابٌ نشأ فى عبادة الله، ورجلٌ قلبُه معلَّق فى المساجد، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال، فقال: إنى أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينُه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم فى ظله لكمال صبرهم، ومشقته على نفوسهم، فصبرُ الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من رعيته، وصبرُ الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبرُ الرجل على ملازمة المسجد، وصبرُ المتصدِّق على إخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال الداعى، وصبرُ المتحابِّين فى الله فى اجتماعهما وانفرادهما، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس؛ فهذه الأمور فيها مشقة على النفوس؛ فالصبر عليها، بتوفيق الله وفضله وإحسانه إلى عبده، صبرٌ جميل عظيم.

ولما كان الداعى فى حق بعض الناس ضعيفًا، ولم يصبروا مع تمكُّنهم من الصبر، كانت عقوبتهم عند الله تعالى أشدَّ من عقوبة غيرهم، كالشيخ الزانى، والملك الكذاب، والفقير المختال؛ وإنما كانوا أشد عقوبة من غيرهم، لسهولة التصبّر عن هذه المحرمات عليهم، ولضعف دواعيها فى حقهم، فكان تركهم الصبر عنها دليلاً على تمردهم على الله تعالى، وعُتُوِّهم عليه؛ ولهذا كان الصبر على معاصى اللسان والفرج، من أشق أنواع الصبر، لشدة الداعى إليهما وسهولتهما؛ فإن معاصى اللسان فاكهة الإنسان، لسرعة حركته وسهولة إطلاقه.

وثبت أن النبى ﷺ قال: «وهل يَكُبُّ الناسَ فى النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائدُ ألسنتهم؟»(١).

فيجب لجامه بلجام الشرع ولهذا قال النبى ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»(٢).

فإذا صارت هذه الآفات التى ذكرناها للسان عادةً وسجية، فإنه يشقّ على العبد الصبرُ عنها إلا مَنْ عَصَمَهُ الله.

لهذا نجد كثيرًا من المتفقهة وغيرهم، ممن ينتسب إلى الورع، يتورع من استناده

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦١٦) كتاب الإيمان، وابن ماجه (٣٩٧٣) كتاب الفتن، وأحمد (٢١٥١١) مسند الأنصار رضي الله عنهم، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٢٨٤)، وصحيح الجامع (٥١٣٦).

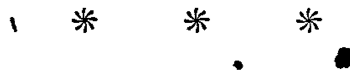
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى مخـدة من الحرير، ولا يتورع من إطلاق لسانه فـى الكبائر من الذنوب، كالغيـبة والنميمة، والتفكهِ فى أعراض الخلق.

ثم نجد أيضًا من يتـورّع عن الحبة من الحرام، وعن القطرة من الخـمر، ولا يبالى بارتكاب الفرج المحرم، سواءٌ كان صبيًّا أو امرأة. كما يحكـى: أن رجلاً خلا بامرأة أجنبـية، فلمـا أراد جمـاعهـا ، قال : يا هذه غطى وجـهك ؛ فإن النظر إلـى وجه الأجنبية حرام.

والمقصود: أن الصبر عن الأشياء التى اعتـادها الإنسان، وورد الشرع بذمّها، من أشق الأشياء على النفوس، إلا من وفقه الله لذلك.

ومن علامة الصبر عدم مـشقته على النفس عند ورود المصائب، وكفُّ الكفِّ عن تمزيق الثيـاب ولطم الخدود، وحبسُ اللسـان عن الاعتراض على المقادير والتـسخط، والامتناعُ من كل شىء يوجب إظهاره، حتى إن السلف كرهوا الأنين.



الباب العشرون
فى الرضا بالمصيبة

اعلم - رحمك الله - أن الرضـا بالمصائب، أشقُّ على النفوس من الصـبر؛ وقد تقدم أن الصبـر من أشق الأشياء على النفوس، وفى جـامع الترمذى أن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعـالى إذا أحب قـومًـا ابتـلاهم؛ فـمن رضى فلـه الرضى؛ ومن سـخط فله السخط**»[1].

فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها، فالرضا أعلى من مقام الصبر؛ لكن الصـبر اتفـقوا على وجـوبه، والرضا اخـتلفوا فى وجـوبه؛ والشكر أعلى من مـقام الرضا؛ فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المُبلى عليها.

قال عمر بن عـبد العزيز: أما الرضا فمنزلة عزيزة أو منـيعة؛ ولكن قد جعل الله فى الصبر معولاً حسنًا.

---

(١) صحيح، وقد تقدم.

وذكر ابن أبى الدنيا فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة بن أبى وقاص: هى المصيبة تُصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، ويسلم لها ويرضى.

وقال: حدثنا الحسين، حدثنا عمر بن ذر قال: بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول: إن الراضين بقضاء الله، الذين ما قضى الله لهم رضوا به، لهم فى الجنة منازل يغبطهم بها الشهداءُ يوم القيامة.

وبهذا الإسناد عن سليمان بن المغيرة قال: كان فيما أوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ولا أحطّ لوزرك من الرضا بقضائى... ولن تلقانى بعمل هو أعظم لوزرك، ولا أشد لسخطى عليك، من البطر؛ فإياك يا داود والبطر.

فإن قيل: غالب الناس يصبرون ولا يرضون، فكيف يُتصورُ الرضى بالمكروه؟ يقال: إن نفور الطبع عن المصائب، لا ينافى رضا القلب بالمقدور؛ فإنا نرضى القضاء، وإن كرهنا المقتضى.

وذكر أبو الفرج بن الجوزى بسنده عن عمار بن ياسر ﷺ أنه قال: اللهم لو أعلم أنه أرضى لك، أن أوقد ناراً عظيمة، فأقعَ فيها لفعلتُ؛ ولو أعلم أنه أرضى لك عنى، أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق لفعلت.

وعن مصعب بن ماهان عن سفيان الثورى قال فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]. قال: المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له.

* وقد أطنب الناس - من السلف والخلف - فى الرضا، وبسطوا القول فيه واعتنوا به، وهذا يدل على علو منزلته.

قال عمرو بن أسلم العابد سمعت أبا معاوية الأسود يقول فى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: الرضا والقناعة.

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن ابن عون أنه قال: ارضَ بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر؛ فإن ذلك أقل لغمك، وأبلغُ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء، كرضاه عند الغنى

والرخاء، كيف تستقضى الله فى أمرك، ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟! ولعل ما هويت من ذلك، لو وُفِّقَ لك، لكان فيه هلكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه؟ إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضا.

وقال سفيان الثورى قال: عمر بن عبد العزيز لابنه: كيف تجدك؟ قال: فى الموت، قال: لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىَّ من أن أكون فى ميزانك، فقال: والله يا أبت لأن يكون ما تحبُّ أحب إلىّ من أن يكون ما أحب.

وروى الإمام أحمد فى الزهد بإسناده عن الحسن قال: حدثنى الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود ﷺ وعنده بنون له ثلاثة، كأنهم الدنانير حُسنًا؛ فجعلنا نتعجب من حسنهم، فقال لنا: كأنكم تغبطوننى بهم؟ قلنا: إى والله، لمثل هؤلاء يغبط المسلم، فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير، قد عشش فيه خُطّافُ وباض، فقال: والذى نفسى بيده لأن أكون نفضت يدى عن تراب قبورهم، أحبُّ إلىّ من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وقد تقدم ما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة وما نهى عنه، ومما سنَّهُ الخشوعُ، والبكاء الذى لا صوت معه، وحزن القلب، وكان يفعل ذلك ويقول: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب**»[1]، وكذلك الحمدُ والاسترجاع.

على أن بعض العارفين من السلف، يوم مات ولدُه جعل يضحك، فقيل له: فى مثل هذه الحال؟ فقال: إن الله تعالى قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه.

فأشكل هذا على جماعة من العلماء وأرباب الأحوال والتصوف، وقالوا: كيف يبكى رسول رب العالمين ﷺ يوم مات ولده، وهو أرضى الخلق عن الله، ويبلغ الرضا بهذا العارف إلى أن ضحك يوم مات ولده؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هدى نبينا ﷺ أكملُ من هدى هذا العارف؛ فإنه ﷺ أعطى العبودية حقها، فاتسع قلبه للرضا عن الله ورحمة الولد والرقة عليه،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

فحمد الله ورضى عنه فى قضائه، وبكى رحمة ورقة؛ فحملته الرحمة على البكاء، وعبوديته لله ومحبته له على الرضا والحمد؛ وهذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين، ولم يتسع باطنه لشهودهما والقيام بهما، فشغلته عبودية الرضا عن عبودية الرحمة والرقة، والله تعالى أعلم. انتهى.

قلت: ومما يؤيد ما ذكره الشيخ - رحمه الله - قصةُ نبى الله يعقوب (إسرائيل) - عليه السلام - إذ حكى الله تعالى عنه أنه ابيضت عيناه من الحزن. وقال ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف: ١٨]. واستعمل الرضا والتفويض فى قوله: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦] واستعمل الرقة والرحمة عند ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ**﴾ [يوسف: ٨٤]، فطريقة يعقوب ـ عليه السلام ـ أفضل من طريقة هذا العارف، مع كثرة أولاد يعقوب، وهذه رحمته ورقته، وأما هذا العارف ـ على ما قيل ـ لم يكن له ولد سواه.

* الرضا من أعمال القلوب، ولكن وإن كان من أعمال القلوب، فكمالهُ هو الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا.

وفى الحديث مرفوعًا أن النبى ﷺ كان إذا أتاه الأمر يسرُّه قال: «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1].

وقد تقدم فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «**إذا قبض الله ولد العبد، يقول الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله - عز وجل - : ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد**»[2].

ومحمد نبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وأمته هم الحمّادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء والرضا.

والحمد على الرضا له مشهدان :

أحدهما : علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك، مستحق له لنفسه، أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم.

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨٠٣) كتاب الأدب، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٦٥). وصحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) حسن، وقد تقدم.

الثانى : أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خيرٌ من اختياره لنفسه، كما روى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضراءُ صَبَرَ فكان خيرًا له**»[1].

فمن لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء، فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له، ولهذا أجيبَ من أورد على هذا بما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين:

أحدهما : أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله، كما فى قوله تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩].

الثانى : أنّ هذا فى حق المؤمن الصابر الشاكر، والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة.

قال بعض السلف: كان داود ـ عليه السلام ـ بعدَ التوبة خيرًا منه قبلَ الخطيئة؛ فمن قُضى له بالتوبة كان، كما قال سعيد بن جبير: إنّ العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار؛ وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة، فتكون نُصْبَ عينيه ويعجب بها؛ ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه، فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

والمؤمن إذا فعل سيئة، فإنّ عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:

أحدها : أن يتوب توبة نصوحًا ليتوبَ الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

والثانى : أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له.

الثالث : أن يعمل حسنات يمحوها لقوله: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٤]

الرابع : أن يَدْعُوَ له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًّا وميتًا.

الخامس : أن يُهدى له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث صهيب رضي الله عنه.

السادس : أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ .

السابع : أن يبتليه الله فى الدنيا بمصائب فى نفسه وماله، وأولاده وأقاربه ومَن يحبُّ، ونحو ذلك.

الثامن : أن يبتليه فى البرزخ بالفتنة والضغطة، وهى عصر القبر، فيكفَّرُ بها عنه.

التاسع : أن يبتليه الله فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر بها عنه.

العاشر : أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومنّ إلا نفسه، كما قال تعالى فى الأحاديث الإلهية: «**إنما هى أعمالكم، أحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنّ إلا نفسه**»[1] - ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

* * *

الباب الحادى والعشرون
فيما يقدح فى الصبر والرضا وينافيهما

فمن شكا ما به إلى مخلوق مثله، كان قد شكا ربه إلى بعض مخلوقاته، فَمَثَلُهُ كمثل من شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضرّه ونفعه، إلى من لا يرحمه وليس بيده نفع ولا ضر. فهذا من عدم المعرفة وضعف الإيمان شكاية الضارّ النافع الذى بيده أزمّة الأمور، إلى من لا يضر ولا ينفع.

قال شقيق البلخى: من شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله، لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا.

وأما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى، فإن كان للاستعانة بأن يرشده أو يعاونه أو يوصله إلى زوال ضره بما ينفعه مما هو أخبرُ منه به، كالحجّام يحجمه ويقلع ضرسه، أو رجل صالح يدعو له؛ فهذه الأمور على هذا الوجه لا تقدح فى صبره.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي ذر.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا دخل على المريض سأله عن حاله ويقول: «كيف تجدك؟» وهو استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح فى الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد. قال القاضى أبو الحسين: أصح الروايتين الكراهة، لما روى عن طاوس، أنه كان يكره الأنين فى المرض.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: اعلم أن الأنين على قسمين: أنين شكوى فيكره؛ وأنين استراحة وتفريج فلا يكره؛ والله أعلم.

* ومما ينافى الصبر والرضا، ما يفعله أكثر الناس فى زماننا عند المصيبة، من شق ثيابهم، ولطم خدودهم، وخمش وجوههم، ونتف شعورهم، والتصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، ورفع أصواتهم عند المصيبة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١]. لأن فى تلك الحالة هيجان الحزن، واستغراق الذهن، وذهول العقل بما دهمه، وتمكُّنَ الشيطان منه، فإنّ الشيطان ــ لعنه الله دائمًا ــ يتمكن منْ بنى آدم عند ذهول عقولهم: إما بسكر، (أى بشرب الخمور والمسكرات). وكذلك ذهول العقل عند العشق وعند الولاية، وعند كثرة المال، وعند المصيبة؛ فكل هذه الأمور العارضة للعبد فى الغالب يحصل له ذهول العقل، فيتمكن الشيطان بها منه.

فإن النبي ﷺ كان يسأل فى دعائه: «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر»[٢]. الدعاء المشهور.

وكان يقول: «اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبى على دينك»[٣].

فالثبات فى الأمور مطلوب شرعًا، كما أن العبد نُهى عن الأمور المذمومة من اللجاج والطيش والعجلة والحدة وافتقاد الحزن، وغير ذلك من الأمور المذمومة التى لا أحصيها عددًا. . . .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢١٤٠) كتاب القدر، وابن ماجه (٣٨٣٤) كتاب الدعاء، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٨٧).

. . . . ويحًا لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الأمور المذمومة التى نهى الشرع عنها غير تائب منها، معتمدًا على صومه وصلاته وحجه وعبادته. . . . ويحًا لمن يغتر بأعماله الظاهرة، وباطنه مثل المزابل . . . نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

* وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم؛ فهو لا ينافى الصبر والرضا.

قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ.

ومات ابن لبعض قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

ولابد أن يعلم المصاب أن الذى ابتلاه بمصيبته، أحكم الحاكمين؛ وأرحمُ الراحمين؛ وأنه سبحانه، لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما ابتلاه به، ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله وليراه طريحًا على بابه، لائذًا بجنابه، مكسورُ القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوى إليه.

والمقصود : أن المصيبة كير العبد الذى يسبك بها حاصله، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبثًا كله كما قيل:

سبكناهُ ونحسبُه لُجينًا فأبدى الكير عن خَبَث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم؛ فإذا علم العبد، أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها، خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لابد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل.

* **ومما يقدح فى الصبر والرضا، وينافيهما:** إظهار المصيبة والتحدث بها وإشاعتها، سواء كان كلام بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: مات فلان، يعنى والده أو ولده، ونحو ذلك، وما يريد به إظهار المصيبة، وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك. . . والمقصود أنّ كتمان المصيبة رأس الصبر.

ولمَّا نزل فى إحدى عـينى عطاء الماء، مكث عشرين سنـة لا يعلم به أهله، حتى جاء ابنهُ يـومًا من قِبَل عـينه التى أُصيب فـيهـا، فلم يشعـر به، فعلم أن الشـيخ قد أصيب.

ومن المنافاة للصبر والرضا: الهلع عند ورود المصيبة وهو الجزع. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)**﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]. قال الجوهرى: الهلع: أفحش الجزع.

* والله تبارك وتعالى يبـتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعـاءه وصبره ورضاه بما قضاه عليه؛ فهو سبحانه وتعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفى صدورهم، فيثبت كلَّ عبد على قصده ونيته، وقد ذمّ الله تعـالى من لم يتضرع إليه ولم يستـكن له وقت البلاء، كما قـال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)**﴾ [المؤمنون: ٧٦].

والعبدُ أضـعفُ من أن يتجلد على ربه ولا يشكو إليه حاله، فـإنه إذا كان سادات الخلائق وهم الأنبيـاء المعصومون صلواتُ الله وسـلامه عليهم أجمعـين، قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شكوا ما بهم إلى الله تعـالى، فقال تعالى عن بعضهم: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)**﴾ [الأنبيـاء: ٨٧]، وأثنى على أيوب بقـوله: ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)**﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وعلى يعقوب ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦]، وعلى موسى بقوله: ﴿**إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)**﴾ [القصص: ٢٤]، وقد شكا إليه خاتم أنبـيائه ورسله بقوله: «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قـوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس؛ أنت أرحمُ الراحمين، أنت ربُّ المستـضعفين**»(١) الحديث المشهور فى دعاء الطائف، وهو دعاء عظيم؛ فالشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ولا الرضاء، بل إعراض العبد بالشكوى إلى غيره من جهله بخالقه وعدم رضاه وصبره بما ابتلاه الله تعالى به، والله تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويُحبُّ من يشكو ما به إليه.

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني في الكبير، من حديث عبد الله بن جعفر، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١١٨٢).

الباب الثانى والعشرون
هل المصائب مكفرات أو مثيبات

وقد اختلف العلماء فى هذا الباب اختلافًا كثيرًا، وتباينوا فيه تباينًا شديدًا، فذهب بعض العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة، وذهب طائفة أخرى من العلماء إلى أنه لا يثاب على المصائب مطلقًا، وإنما يثاب على الصبر عليها، حتى قطع به ابن عبد السلام فى قواعده. . . . وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء إلى أن إطلاق القول بالثواب، وإطلاقه بعدم الثواب، كلاهما يرد عليه ما يدفعه، وأن ثمَّ فرقًا مؤثرًا نذكره فيما بعد إن شاء الله.

وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت إليه.

احتجت طائفة من العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ قال: «ما يصيبُ المؤمن من نَصَب، ولا وصَب، ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا غمٍ ولا أذى، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[١]، الوصب: الوجع اللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: ٩]، أى: لازم ثابت، والنصب: التعب.

وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحِنْثَ إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[٢].

قال النووى - رحمه الله - فى شرح مسلم عند قوله ﷺ: «ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»[٣]. وفى رواية: **«إلا رفعه الله بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة»**. وفى بعض النسخ: **«وحط عنه بها خطيئة»**

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٢) كتاب البر والصلة والآداب.

بغير ألف؛ وفى رواية: «**إلا كتب له بها حسنة، أو حطت عنه بها خطيئة**». قال: وفى هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلَّ أن ينفكَّ الواحد منهم ساعةً من شىء من هذه الأمور؛ وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها؛ وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذى عليه جماهير العلماء. وحكى القاضى عياض عن بعض العلماء: أنها تكفر الخطايا فقط. ولم يبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات وكتب الحسنات.... انتهى كلامه.

وفى حديث المرأة التى كانت تُصْرَع: دليل على أن الصَّرَع يثاب عليه أكمل ثواب.

قال بعض السلف: فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة.

وتقدم فى أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول.... والله أعلم.

* احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يثاب على الصبر عليها، بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]. قال ابن عبد السلام فى قواعده: الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه. قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ۝١٥٦ **أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧] فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ فالاسترجاع هو سبب فى حصول ما ذكر.

وكذلك حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه **أنه قال:** قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله - عز وجل - لملك الموت: يا ملك الموت قبضت ولد عبدى؟ قبضت قُرَّةَ عينه، وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع؛ قال: ابنوا له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد**»[1]، فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له فى الجنة، وتسمية البيت كافية.

---

(١) سبق تخريجه.

قال القاضي عياض: وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الوجع لا يكتب به أجرٌ إنما يكفر الخطايا فقط.

فصل
فى سياق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله

أما ما يحدثه الله فى المصائب؛ فتارة بغير فعل الخلائق، كالأمراض ونحوها، وتارة بفعلهم..... وفصل الخطاب: أن المصائب إن تولدت عن عمل صالح، كما تتولد عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونحوه، فهذا يثاب عليه، فإن الإنسان يثيبه الله على عمله وعلى ما يتولد عن عمله إذا أقدم على احتماله؛ فإن المجاهد قد أقدم على الجهاد وهو يعلم أنه يؤذى فى الله - عز وجل - وقد يناله ضررٌ فى جهاده فتموت فرسه، أو يؤخذ ماله، أو يُضرب أو يُشتم ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فأخبر تعالى أنه يكتب لهم عمل صالح، بما يصيبهم من التعب والجوع والعطش، ونحو ذلك الذى حصل لهم بسبب الجهاد فى سبيل الله - عز وجل - فهذه الأمور يغفرُ الله بها خطاياه، ويؤجرُ على هذه المصائب؛ لأنها حصلت بسبب جهاده فهى مما تولَّدَ عن عمله، وما تولد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها. وأما الجوع والعطش والتعب الذى يحصل بدون ذلك فلا يثاب إلا على الصبر عليه، فإنه ليس من عمله ولا متولداً عن عمل صالح، لكن هو من المصائب التى يكفر الله بها خطاياه. وأما المصيبة بالولد، فالولد تولد عن جماعه[1] الذى صان به نفسه عن الزنا، وقصد به النسل، وتكثير الأمة، وغض البصر عن المحارم؛ فإذا حصل له ذلك، ثم مات

(١) أي: الجماع مع زوجته.

الولد فقـد أثيب عليه من جهـة، وكفر الله به خطاياه من جـهة؛ لأنه تولد عن عمله. وأما الأمراض والأسقام فهى تكفر الخطايا.

ثم قال بعد ذلك بكلام كـثير: فمن فعل فـعلاً صالحًا باختياره فـأوذى، واحتسب ذلك الأذى، كان ذلك الأذى من عمله الصالح الذى يثاب عليه؛ كالصائم إذا احتسب جوعه وعطشه.

وقد قـال ﷺ: «**لخلوفُ فم الصـائم أطيبُ عنـد الله من ريح المسك**»[1] والخلوف تولد عن صومه بغير اختياره، ولكن تولد عن عمل صالح.

وقال الشيخ ــ رحمه الله ــ فى قول النبى ﷺ: «**لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كـان خيـرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمـؤمن؛ إن أصـابته سـراء شكر، فكان خيـرًا له، وإن أصابتـه ضراء صبر فكان خيـرًا له**»[2]. وهى نفسها تكفـر خطاياه، ويؤجر على الصبر عليها، فـفيها له مغفـرة من جهة ما يكفره من الخطـايا. وله فيها رحمةٌ من جـهة ما يؤجر على الصـبر عليهـا؛ لا سيما إذا اقـترن بها توبة وإنابـةٌ إلى الله، وتوكلٌ عليه وتوحيدٌ له، وإخلاصُ الدين له، فإنها تكون من أعظم النعم، . . . . ومصيبة تُقْبِلُ بها على الله خيرٌ لك من نعمة تنسيك ذكر الله.

وفى الأثر أنه «**إذا قالوا للمريض:** اللهم ارحمه، يقول الله ــ عز وجل ــ : كيف أرحمه من شىء به أرحمه؟».

وفى الأثر: يا ابن آدم البـلاء يجـمع بينى وبينك؛ والعـافـيـة تجـمع بينك وبين نفسك. . . . انتهى.

والمقصود من كـلام الشيخ - رحمه الله - أن كل ما تولـد عن عمله الصالح من المصائب أثيب عليـه، بخلاف المصائب التى لم تتـولد عن عمله، فإنهـا مكفرات لا مثيبات.

قال الشـيخ رحمـه الله: وكثـيرٌ من الناس لا يعرف النـعمة إلا مـا يلتذُّ به فى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام، من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث صهيب رضي الله عنه.

دنياه، كما قال بعض السلف: من لم يعرف نعمة الله إلا فى مطعمه ومشربه، فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه. فمن الناس من يرى النعمة فى بدنه فقط، بالأكل والشرب والنكاح؛ ومنهم من يرى النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الأمر والنهى وقهر الأعداء؛ ومنهم من يرى النعمة فى جمع الأموال والقناطير المقنطرة؛ وهؤلاء من جنس الكفار الذين يرون هذه نعمًا؛ . . . وأعلى من هؤلاء: من يرى النعمة فى الإيمان والعمل الصالح، لكن لا يرى الأمر بذلك والجهاد عليه نعمة، بل يرى فيه من المضار ما يوجب تركه. . . . والذين يرون هذه النعمة: منهم من لا يراه نعمة إلا مع السلامة والغنيمة، فإن جُرح أو قتل بعض أولاده، أو أخذ ماله، عَدَّ ذلك مصيبة لا نعمة. وحجة هؤلاء كلهم أن النعمة ما يتنعم به العبد، وهذه الأمور تؤلم النفس، فلا تكون من النعم، بل من المصائب؛ ولا ريب أنها من المصائب؛ باعتبار ما يحصل فيها من الألم؛ ولهذا أمر بالصبر عليها، لكن لا منافاة بين كون الشىء مصيبة باعتبار، ونعمة باعتبار، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة، وهذا لأنه إذا قيل: هذا يكفر به الخطايا ويؤجر عليها على الصبر عليها كانت نعمة، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه، هو مصيبة باعتبار مرارته، وهو نعمة باعتبار إزالته للمرض الذى هو أشد ضررًا فيه، وأدنى الشرين إذا زال أعظمها كان نعمة؛ ومن استعمل نعمة الله فى المعاصى، كانت شرًّا فى حقه؛ لأنها جرته إلى العذاب الذى هو أعظم من تلك اللذة كمن أكل عسلاً فى سم، فإن ضرر السم أعظم من حلاوة العسل، والله أعلم. انتهى كلامه.

* * *

الباب الثالث والعشرون
فى الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه

وهذا البـاب مما يطيِّب قلوب أهل المصائب على مـصابهم، فـإنهم إذا بدّلوا بدل الحزن والبكاء ولطم الخدود وشق الثياب والنياحة، . . . . الصـدقةَ والدعاءَ والاستغفار وقراءة القرآن والصلاةَ والـصيامَ، ونحو ذلك من أفعال القرب، وعلـموا وصولها إلى موتاهم، وأنه يحصل لهم بذلك: إما تكفير سـيئات، أو رفع درجات، أو كلاهما ــ حصل لهم السرورُ بذلك والفرحُ الزائد.

فصل: فى ذكر اختلاف الناس
فى وصول ثواب إهداء القُرَب إلى الموتى

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وقضاء الدين وأداء الواجبات، فلا أعلم خلافًا فى وصولها، . . . . حكاها غـير واحد من العلماء؛ ومن العلمـاء من يشرط فى الوصول إذا كانت الواجبات مما يدخله الـنيابة. قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحشر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [محمد: ١٩]، ودعاء النبى ﷺ لأبى سلمة حين مات أبو سلمة، ودعاء النبى ﷺ للميت الذى صلى عليه، وشرع الله ذلك له، وشـرَّعه لكل من صلى على مـيت بقوله: «**اللهم اغـفر لحينا وميـتنا**»، وكذلك: «**اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعفُ عنه**» الدعاء المشهور المعروف.

وأما وصول العبادات المالية المحضة، كالعتق والصدقة ونحوهما: فجمهور العلماء من أهل السنة والجـماعـة على وصـول ثوابها إلى الموتى، كـمـا يصل إليهم الدعـاء والاستغفار؛ وأما وصول ثواب الأعمال البدنية كالصوم والصلاة والقراءة ونحو ذلك، فالصحيح الوصول، وهو مذهب الإمام أحمـد وأبى حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعى، لما يأتى من الأحاديث بعد إن شاء الله.

فصل : فى الآيات والأحاديث فى هذا الباب

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]. فلو لم ينفعهم ذلك لم يخبر الله تعالى به ترغيبًا.

وأما الأحاديث فمنها: عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إن أمى افتلتت نفسُها، وأراها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: **«نعم»**(١).

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقى علىَّ من برِّ أبوىَّ شىءٌ أبرهما به بعد موتهما؟ قال: **«نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما»**(٢).

* **ومن الأدلة المستحسنة قوله ﷺ فى الأضحية لما ضحى بكبشين فلما ذبح أحدهما قال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عن محمد وآل محمد»** ولما ذبح الثانى قال: **«اللَّهم هذا عنى وعمن لم يضحِّ من أمتى»**(٣).

ففيه دليل على أن النفع قد نال الأحياء والأموات من أمته بأضحيته ﷺ ، وإلا لم يكن فى ذلك فائدة، فإنه ﷺ ما ينطق عن الهوى.

وقال للذى قضى الدين عن الميت: «الآن بردت عليه جلدته»(٤).

وحديث ابن عباس أن النبى ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذَّبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول - وفى لفظ: **لا يستنزه من البول ــ وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة، ثم دعا بجريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرس على كل قبر واحدة»**.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٨٨) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٠٤) كتاب الزكاة، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٥١٤٢) كتاب الأدب، وابن ماجه (٣٦٦٤) كتاب الأدب، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٤٩٣٦).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٢٨١٠) كتاب الضحايا، والترمذي (١٥٢١) كتاب الأضاحي، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (١١٣٨).

(٤) صحيح: رواه أحمد (١٤١٢٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٧٥٣).

وقال: «**إنه ليخففُ عنهما ما لم ييبسا**»[(١)].

قال الخطابى: هذا عند أهل العلم محمــول على أن الأشياء، ما دامت على أصل خلقتها أو خضرتها وطراوتها، فإنها تسبح الله - عز وجل - حتى تجف رطوبتها، أو تحول خضرتها، أو تقطع من أصلها؛ فإذا خُفف عن الميت بوضعه ﷺ الجريدة على قبــره، لكونها تسبح الله، فبطـريق الأولى والأحرى أن تخفف القرب على اخــتلاف أسبابها، وإن أعظم القــرب كلامُ رب العالمين، الذى نزل به الروح الأمين، على قلب أشرف المــرسلين؛ وقد أوصى بريدة رضي الله عنه أن يجــعل جريدة علــى قبــره؛ . . . . ذكره البخارى.

وقد استحب ذلك جماعة من العلماء من أصحابنا وغيرهم، وأنكره آخرون.

وقال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم: ذكر أن العلماء استحبوا القراءة لخبر الجريدة؛ لأنه إذا أرجى التخفيف لتسبيحها، فالقراءة أولى. . . انتهى كلامه.

فصل: فى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾

وأما احتجــاج بعض من خالف من أصحاب الشافـعى ومالك بهذه الآية على أن الميت لا ينتفع بثواب من ســعى غيره؛ لأن النبى ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[(٢)].

قالوا: ولأن نفع العبادة لا يتعدى فاعلها.

فيقال لهم: قد ثبت بالسنة المتواترة وإجمــاع الأمة؛ أن الميت يُصلى عليه ويُدعى له ويُستغفــر له، وهذا من سعى غيره، وكذلك ما وافقوا عــليه وسلموه من أنه ينتفع بالصدقة والعتق، وهو من سعى غيره، ولـلـناس فى ذلك أجوبة متعددة، ولكن تحقيق ذلك أن يقال: إن الله تعالى لم يقل: إن الإنسان لا ينتفع إلا بسعى نفسه، وإنما قال: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلا مَـا سَعَى ﴾ وهو لا يملك إلا سعـيه، ولا يستحق غـير ذلك، وإنما سعى غيره فـهو له؛ كما أن الإنسان لا يملك إلا مال نفســه، ويملك نفع نفسه بمال غيره.

ومما يســتأنس به فى وصــول الثواب، أنه يســتحب الــدفن عند الصالحـين ليناله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

بركتهم، ونص الإمام أحمد، على أن الميت يتأذى بالمنكر عنده، فإن الميت إذا تأذى بالمنكر انتفع بالخير بطريق الأولى.

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: «إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه»[١].

فالله تعالى أحكم وأعدل من أن يوصل عقوبة المعصية إليه ويحجب عنه المثوبة. . . . والله تعالى أعلم.

* تستحب القراءة عند القبر؛ لأنه قد صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أوصى إذا دُفن، أن يقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها.

وروى عن الإمام أحمد أن القراءة لا تكره حال الدفن دون غيره. وروى عنه الكراهة مطلقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الكراهة نقلها الجماعة عن الإمام أحمد، وهى قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه كالمروزى وغيره.

وذكر بعض أصحابنا عن الخلال أنه قال: المذهب رواية واحدة، أن القراءة عند القبر لا تكره. انتهى.

لكن القراءة على القبر ليست من فعل النبى ﷺ ولا أصحابه، والله أعلم.

نص الإمام أحمد على أنه يستحب الدعاء للميت عقب دفنه. ثم قال أحمد: قد فعله على بن أبى طالب، والأحنف بن قيس.

ويروى عن عثمان بن عفان أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: **«استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأَلُ»**[٢].

وكان أنس رضي الله عنه إذا سوَّى على الميت قبره قام عليه فقال: اللهم، عبدك نزل بك، فارأف به وارحمه؛ اللهم، جافِ الأرض عن جنبيه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبل منه بقبول حسن؛ اللهم، إن كان محسنًا فضاعف له الحسنات أو قال: ــ فزد له فى إحسانه - وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه. رواه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما.

وذهب الشافعى أيضًا إلى استحباب الدعاء عقب الدفن.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٢١) كتاب الجنائز، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٤٥).

وقال أكثر المفسرين فى قوله - عز وجل - فى حق المنافقين: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] معناه بالدعاء والاستغفار بعد الفراغ من دفنه، وكذلك ذكر جماعة من المفسرين: لما همّ النبى ﷺ بالاستغفار لعمه أبى طالب لما مات وهمّ بعض الصحابة بالاستغفار لأبويه، أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، فلولا أن ذلك نافع للمؤمنين كما تقدم، لم يكن لذلك معنى، بل لما نهى عنه للمشركين، دلَّ على وقوعه للمؤمنين ونفعه لهم.

فصل

هل يصح إهداء ثواب نوافل العبادات للمسلم الحى؟

ذكر لى بعض فضلاء الحنفية أن وصول القرب إلى الحى مذهبهم، والدليل على الوصول قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأيضًا فإن الرسول ﷺ والمسلمون، ما زال يدعو بعضهم لبعض عمومًا وخصوصًا، لأحيائهم وأمواتهم، من غير نكير؛ ولأنه مشروع فى دعاء الميت إلى يوم القيامة فى قوله: «اللهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا».

قال القاضى أبو يعلى: وليس يُعرف عن الإمام أحمد رواية فى الفرق بين الحى والميت، بل ظاهر قوله يعمهما، وقد دل عليه الكتاب والسنة فى الدعاء والاستغفار للتساوى فلا فرق.

* * *

الباب الرابع والعشرون

فى ذكر عمارة القبور

وقد اشتغل بعض أهل زماننا ممن أصيب بموت أقاربه، ببناء قبورهم وتبليطها وتجصيصها، وبناء التربة المحتوية على القبور وتحسينها وتزويقها، ويزرعونها أنواع الرياحين، ويصعدون إليها فى الغالب كل يوم خميس بالأهل والأقارب وملاذ الأطعمة وأنواعها، ويظنون أن ذلك قربة وطاعة إلى الله ـ عز وجل ـ وربما يقولون: فى هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى. وما علموا أن هذه الأمور من البدع المكروهة

المنهى عنها، وأن من البدع تعظيم القـبور وتبليطها وتجصيصها، وبناء القـباب عليها، كل هذا من البدع الذى كرهه السلف والعلماء، وهو مخالف لسنة رسول الله ﷺ.

ولقد نهى النبى ﷺ «أن يُقعد على القبر، وأن يُجصص، أو يُبنى عليه»[١].

ونهى أن يُكتب على القبر شىء[٢].

وعن أبى الهيـاج الأسدى قال: قال لى على: ألا أبعـثك على ما بعـثنى عليه رسول الله ﷺ: اذهب، فلا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته[٣]. رواه أبو داود والترمذى.

فالسنة تسوية هذه القبور المُشرفة المحجَّرة المطينة المجصصة.

وكذلـك نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عليـه، ونهى عن اتخـاذها مسـاجد، وإيقاد السُّرُج عليها، واشتـد نهيه ﷺ حتى لعن فاعل ذلك، ونهى عن الصلاة إلى القبور، حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيداً.

* وليعلم أن عمارة الأحياء والأمـوات ليست من خارج، فإن النبى ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكـن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٤]، فعمارة القلب هى العمارة النافعة. . . . فالعمارة ليـست بزخرفة القبر ولا التربة ولا تزويقها، وإنما العمارة بالصـدقة عن ساكنها وأفعال القرب عنه، وقـد تقدم هذا فى الباب الذى قبله.

فكل ما ذكرته لك يا أخى يفطم النفوس عن الشهوات؛ ولتعلم أن عمارة البواطن أولى من عـمارة الظواهر، وهى العـمارة النافـعة فى يوم القـارعة، فإذا بحـثت عن الحقيقة، ونظرت بعين البصيرة، علمت أنك عن قريب صائر إلى ما صار إليه، وقادم على ما قدم عليه، فـإن العبد بينما هو يمرح فى أمنيته، غافـلاً عن يوم مصرعه، إذ هجمـت عليه المنيـة، فهـتكت أستـاره، وكسفت أنـواره، وطمست أعـلامه وآثاره، فأخرجـته من قصرٍ مَـشيد، وبيت حميـد، مزخرف نضيـد، إلى حفرة من الأرض،

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٠) كتاب الجنائز، من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) صحيح: رواه ابن مـاجه (١٥٦٣) كتاب ما جـاء في الجنائز، وصححه العلامـة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٨٤٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩) كتاب الجنائز، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة.

كحفرة أخيه أو ولده أو غيرهما، مظلمة ضيقة الجوانب، مملوءة من الرعب والفزع، فإما هى روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، أعاذنا الله منها.

* وكان عثمان ﷺ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكى، وتبكى من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»[1].

وقال ﷺ: «**ما رأيت منظرًا قط إلا والقبرُ أفظع منه**»[2].

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ **قال**: دخل رسول الله ﷺ مصلاه، فرأى ناسًا كأنهم يكتشرون - أى يضحكون حتى تبدو نواجذهم - فقال: «**أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات** - يعنى الموت - **لشغلكم عما أرى، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يومٌ إلا تكلم فيه، فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دُفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحبًا وأهلاً، أما إن كنتَ لأحبَّ من يمشى على ظهرى إلىّ، فإذ وليتك اليوم وصرتَ إلىّ، فسترى صنيعى بك، قال: فيتسع له مدّ بصره، ويفتح له باب إلى الجنة؛ وإذا دُفن العبد الفاجر أو الكافر، قال له القبر: لا مرحبًا ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلىّ، فإذ وليتك اليوم فسترى صنيعى بك؛ فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه وتختلف أضلاعه. قال رسول الله** ﷺ **بأصابعه فأدخل بعضهما فى بعض؛ قال: ويُقيضُ له سبعون تنينًا، لو أن واحدًا منها نفخ فى الأرض، ما أنبتت شيئًا ما بقيت الدنيا، فينهشنه ويخدشنه، حتى يفضى به إلى الحساب إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[3].

وقال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم حفرتهُ تقول: أنا بيت الدود، وبيت الوحدة، وبيت الوحشة، وبيت الظلمة، وبيت الغربة! هذا ما أعددت لك يا ابن آدم، فما أعددت لى؟

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٠٨) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤٢٦٧) كتاب الزهد، وأحمد (٤٥٦)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦٨٤).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٣٠٨) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤٢٦٧) كتاب الزهد، وأحمد (٤٥٦)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٦٢٣).

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٦٠) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١٢٣١).

وقال بعض الحكماء: أربعة أبحر لأربع: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر الندامات، وعفو الله بحر الخطيئات؛ فنسأل الله العظيم أن يجعل القبر خير بيت نعمره ونسكنه!

* واعلم أنه لو دخل شخص إلى المقابر المزخرفة، ليميز السعيد من الشقى، ما علم هذا من هذا، وما يعلمه إلا عَلام الغيوب، بل قد يكون قبرًا من القبور قد درست أعلامه، وقد بقى ممشى للدواب، وصاحبه فى أعلى الجنان؛ وقد يكون قبرًا مزخرفًا، وقد عليت عليه القباب والبشخانات الحرير، وصاحبه فى نار جهنم.

ويشبه هذا ما روى أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك وبادوا، فقال الإسكندر: هل بقى من نسل أولئك الملوك أحد؟ فقيل: ما بقى منهم إلا رجل واحد يأوى المقابر؛ فدعا به؛ فلما أحضره قال له: ما حملك على لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت الكل سواء. قال له الإسكندر: هل لك أن تتبعنى، فأجيز لك بشرف آبائك، إن كانت لك همة عظيمة؟ فقال: إن لى همة عظيمة بشرط: إن كانت بغيتى عندك تبعتك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب ليس معه هرم، وغنى ليس معه فقر، وسرور ليس معه حزن. قال الإسكندر: ليس ذلك عندى ولا بيدى، فقال: أى خير أرجوه عندك، إن لم يكن عندك هذه الأشياء؟ فامض لشأنك، ودعنى أطلب ذلك ممن يملكه، وهو عنده. ثم عاد إلى مكانه، ولم يلتفت إلى الإسكندر.

وقال سفيان الثورى: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار.

ومر علىّ بن أبى طالب ﷺ بالمقابر فوقف عليها قليلاً، فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون؛ اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضى فى جميع أحواله عن الله تعالى. ثم قال: يا أهل القبور، أما الزوجاتُ فقد نُكحت، وأما الديار فقد سُكنت، وأما الأموال فقد قُسمت، هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما

إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى.

ويروى أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فرآه قد تغير من كثرة العبادة، فجعل يتعجب من تغير لونه واستحالة صفته، فقال له عمر: يا ابن أخي وما تعجبك منى؟ فكيف لو رأيتنى بعد دخولى قبرى بثلاث؟ وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقطعت الشفتان، وتقلصت الأسنان، وخرج الصديد والدود من المنخرين والفم، وانتفخ البطن فعلا على الصدر، لو رأيت ذاك منى فهو أعجب مما رأيته الآن.

واعلم - رحمك الله - أنه من علم مصيره إلى هذه الحفرة المظلمة، فإنه عن قريب سيُطرح فى حفرة تتقطع فيها أوصاله، وتتغير فيها أحواله، ثم ينتن بعد ذلك، ويفر من رائحته من كان عنده أحب الناس إليه إذا اطلع عليها.

* * *

الباب الخامس والعشرون
فى أن الله يثبت الذين آمنوا عند المسألة

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال أكثر المفسرين: هى كلمة التوحيد، وهى قول: لا إله إلا الله فى الحياة الدنيا - يعنى: قبل الموت - وفى الآخرة - يعنى: فى القبر.

قال ﷺ: «المسلم إذا سئل فى قبره، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»[1].

وفى رواية لأبى داود: «فيأتيه ملكان، فيجلسانه، ويقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت؟ فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. قال: فينادى منادٍ من السماء أن صدق

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٩٩) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٧١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث البراء بن عازب.

عبـدي، فأفـرشوه من الجنة، وألبـسوه من الجنة، وافـتحـوا له بابًا إلى الجنة. قـال: فيأتـيه من روحهـا وطيبهـا. قال: ويُفْسَح له مدَّ بصره. قـال: وإن الكافر.... فـذكر موته. قـال: وتعاد روحه إلى جسده، فيأتيه ملكان، فـيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى! فيقـولان له: ما دينك؟ فيقـول: هاه هاه لا أدرى! فينادى مناد من السماء: أن كـذب عبدى، فأفرشـوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بـابًا إلى النار؛ فيأتيه من حرها وسمـومها. قال: ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضـلاعه. قال: ثم يُقيَّضُ له أعمى أبكم معه مرزَبَّة من حديد، لو ضُرب بها جبلٌ لصار ترابًا. قال: فيضربه به ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير ترابًا، ثم تعاد فيه الروح»[(١)].

فقد اشتـمل هذا الحديث على فوائد منها: التثبيت لأهل الإسلام والإيمان الذين آمنوا بالله، وما جاء من عند الله، وصدقوا به، وآمنوا برسوله واتبعوه، ومنها الإيمان بعذاب القبر، وإعادة الروح إلى الجسد.

قال ﷺ: «إن الميت إذا وضع فى قبره، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مـؤمنًا، كانت الصـلاة عند رأسه، وكان الصـيام عن يمينه، وكـانت الزكاة عن شـماله، وكان فـعل الخيـرات والصدقة والصـلة والمعروف والإحسـان عند رجليه، فـيأتيـان من قِبَل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبَلى مدخل؛ ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قِبَلى مدخل؛ ثم يؤتى من قبل شـماله، فتقول الزكـاة: ما قِبَلِى مدخل، ثم يـؤتى من قبل رجليه، فيـقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلى مدخل، فيقال: اجلس، فيجلس، قد مثلت له الشـمس قد أضاءت الغروب، فـيقال له: هذا الرجل الذى كان فـيكم، ما تقول فيـه؟ وما تشهد به علـيه؟ فيقـول: دعونى حتى أصلى: فـيقال: إنك ستـصلى؛ أخبرنا عـما نسألك عنـه، أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكـم، ما تقول فـيه، وما تشـهد به عليـه؟ قال: فيقول: محـمد، أشهد أنه رسول الله، جاء بالحق من عند الله، فيـقال له: على ذلك حييتَ، وعلى ذلك تموت، وعلى ذلك تُبعث إن شاء الله، ثم يفـتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورًا، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا، وينورَّ له فيه، ويعاد الجسد لما بدأ منه، فيُجعل نسمة فى النسيم الطيب، وهى طير يعلق (أى

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٥٣) كتاب السنة، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦٧٦) من حديث البراء بن عازب.

يأكل) من شجر الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»، وذكر فى الكافر ضد ذلك، إلى أن قال: «**يضيق عليه فى قبره، إلى أن تختلف أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾** [طه: ١٢٤]، وهذا مختصر من الحديث[١].

وليُعلم أن النار والخضرة التى ورد ذكرهما فى القبر، كما تقدم ليست من نار الدنيا، ولا الخضرة زرع الدنيا، وإنما هى من نار الآخرة، ومن خضرها، وهما أبلغ وأشد من نار الدنيا وخضرها؛ فإن من قضى الله بعذابه؛ فإنه يحمى عليه ذلك التراب؛ وتلك الحجارة التى فوقه وتحته، حتى يكون أعظم حرًّا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، ولم يروا إلا ترابًا وحجارة ولبنًا، بل قد يدفن شخصان: أحدهما إلى جنب صاحبه، هذا فى حفرة من حفر النار، وهذا فى روضة من رياض الجنة، لا حرّ هذا يصل إلى هذا، ولا نعيم هذا يصل إلى هذا؛ وقدرة الرب - عز وجل - أوسع وأبلغ وأعجب من ذلك؛ وكل ذلك حتى يحصل للمؤمنين اجتهاد وخوف من الله تعالى، ومراقبته فى السر والعلانية، فينتج من ذلك مضاعفة الأجر العظيم، والثواب الجزيل؛ لأن ما ذكرناه هو من الإيمان بالغيب، ويعلم المؤمن أن أمامه أهوال وعقبات ـ نسأل الله السلامة ـ وما ذكرته، وإن كان من المغيبات، قد يطلع الله بعض خلقه على ما يشاء من عجائب قدرته.

كما فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع»[٢].

وفى الصحيح أيضًا أن النبى ﷺ مر بقبرين. وقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير...**»[٣]. الحديث المشهور.

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى كتاب الروح: «حدثنى صاحبنا أبو عبد الله ابن محمد الوزير الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان؛ قال: فلما

(١) صحيح: رواه أحمد (١٨١٤٠)، من حديث البراء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٦) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

كان قبلَ غروب الشمس توسَّطتُ القبور، فإذا بقبر منها وهو جمرةُ نار مثل كور الزجّاج والميت فى وسطه، فجعلت أمسح عينى وأقول: أنا نائم أم يقظان؟! ثم التفتُّ، فإذا سور المدينة؛ قلت: والله ما أنا نائم! ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد، فسألت عن صاحب ذلك القبر، فقالوا: رجل مكَّاس توفى، فإذا به توفى ذلك اليوم....» انتهى ما ذكره.

فصل: فى البرزخ

قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فالبرزخ: اسم لما بين الدنيا والآخرة، وهذه الآية دالة عليه، وهذا البرزخ يُشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة.... وعذاب القبر ونعيمه: اسم لعذاب البرزخ ونعيمه؛ فجعل الله سبحانه وتعالى الدُّور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دارٍ أحكامًا تختص بها، وركَّب هذا الإنسان من بدْن ونفْس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تبعٌ لها. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدانُ تبعٌ لها؛ فكما تبعت الأرواحُ الأبدانَ فى أحكام الدنيا فى نعيمها وعذابها، تبعت الأبدان الأرواح فى نعيمها وعذابها، فالأرواح فى البرزخ هى المباشرة للنعيم والعذاب، ثم يسرى إلى أبدانها، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها، فالأبدان فى الدنيا ظاهرة؛ والأرواح خفية؛ والأرواح فى البرزخ ظاهرة، والأبدان خفية. وإذا أردت أن تعلم ذلك فخذ نوم الشخص فى الدنيا، فإنه ينعم فى حال نومه أو يعذب؛ فهو يجرى على روحه أصلاً، والبدن تبع لها.

ولقد أخبرنى الشيخ نصير المقدسى - وكان من صلحاء أهل مدرسة شيخ الإسلام أبى عمر - قال لى: ثلاثَ ليال أرى فى النوم كأن أناسًا يستعملونى بالفاعل، وأخاف منهم خوفًا شديدًا، فأعملُ، ثم أصبح فى هذه الأيام وأنا تعبان فى غاية التعب، وربما قص علىّ منامات لبعض الناس، يرى أنه يأكل أو يشرب، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه - أى فى فمه - .

* وينبغى للعبد، إذا تفكر بعين بصيرته، وعلم مآله إلى هذه الحفرة، وما أعدّ له

فيها، أن يجتهد فى العبادة، ويكثر من الأعمال الصالحة، ويعلم أن عمله يُعرض على أقاربه من الأموات، كما ورد فى الخبر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا، وإن كان غير ذلك، قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا**»(١).

فكان أبو الدرداء يقول: اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملاً أُخزى به عند عبد الله ابن رواحة.... فنعوذ بالله من الافتضاح بين الأقارب الصلحاء أهل الطاعة لله تعالى، ثم نعوذ بالله من الافتضاح غداً، بين يدى أحكم الحاكمين، على رؤوس الخلائق، بل نسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه.

قال مجاهد: إنه ليبشر المؤمن بصلاح ولده من بعده، لِتَقَرّ بذلك عينُه.

* وأما تلقين الصغار، فقد قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح: أما تلقين الطفل الرضيع، فما له مستند يعتمد عليه، ولا نراه، والله أعلم.

وقال النووى - رحمه الله -: الصواب أنه لا يلقن الصغير، سواء كان رضيعًا أو أكبر منه، ما لم يبلغ، إذ يصير مكلفًا، والله أعلم.

وقال العلامة موفق الدين فى المغنى: التلقين بعد الدفن لم أجد فيه عن أحمد شيئًا، ولا أعلم فيه للأئمة قولاً سوى ما رواه الأثرم، قال: قلت لأبى عبد الله، فهذا الذى يصنعون إذا دُفن الميت يقف الرجل، ويقول: يا فلان ابن فلان... الحديث المعروف. قال: ما رأيت أحدًا يفعل هذا إلا أهل الشام، حين مات أبو المغيرة جاء إنسان، فقال ذلك؛ ثم قال بعد كلام. وقال القاضى أبو الخطاب: يستحب ذلك.

* **ومن غرائب ما ذكره أبو محمد بن حزم فى كتابه فى الملل والنحل قال:** وأما من ظن أن الميت يحيا فى قبره إلى يوم القيامة فخطأ لأن الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك، وكان ذكر قبل ذلك قوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٨]، ثم قال: ولو كان الميت يحيا فى قبره، لكان تعالى أماتنا ثلاثًا، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله آيةً لنبى من الأنبياء.

(١) ضعيف: رواه أحمد (١٢٢٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٨٦٣).

وما كان يليق بأبى محمد بن حزم أن يجازف هذه المجازفة، وأن يقول القول بهذا خطأ: فجوابه مردود بالنصوص الصريحة المتقدم ذكرها، وهو قوله ﷺ: «**فتعاد روحه فى جسده**»، بل لقد قيل: إن هذا إجماع الأمة على هذا، وأنهم تلقوه بالقبول، وأنهم مجمعون على من رد ذلك وأنكره، إنه مخطئ؛ وأن تصديق ذلك من الإيمان بالبعث. ولكن إن أراد ابن حزم أن الميت لا يحيا فى قبره الحياة المعهودة فى الدنيا، التى يقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس، فهذا صحيح، يشهد العقل بصحة ذلك، وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه غير الإعادة المألوفة فى الدنيا، لأجل المسألة والامتحان، كما وردت بذلك النصوص الصحيحة، فهذا حق، ونفيه خطأ بيِّنٌ، بل نفيه باطل قادح فيمن نفاه.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به فى بطن الأم.

الثانى: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به فى حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به فى البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا، بحيث لا يبقى لها التفات إليه، بل تعاد إليه وقت المسألة، وترد إليه أيضًا وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب إعادة البدن قبل القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد. وهو أكمل تعلقها به، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق البتة، إذ هو تعلق لا يقبل البدن به موتًا ولا نومًا ولا فسادًا، والله أعلم. انتهى كلامه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عودة الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون، فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مسرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده والله أعلم. انتهى كلامه.

الباب السادس والعشرون
فى اجتماع الأرواح وهيئاتها
وأين محلها والخلاف فى ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وسنذكر نبذة يسيرة، جامعة لكلام غالب العلماء، فى مستقر الأرواح بعد الموت إلى أن تقوم الساعة، هل هى فى السماء أم فى الأرض؟ وهل هى فى الجنة أم فى النار؟ وهل تنعم فى أجسادها وتعذب، أم تودع أجساد غير أجسادها؟ أم تكون مجردة، أو تعدم بالكلية، فلا يبقى لها وجود أصلاً؟

فقد نقلوا عن العلماء فى ذلك اختلافًا كثيرًا متباينًا.

فمن العلماء من ذهب إلى أن أرواح المؤمنين والشهداء فى الجنة، بشرط أن لا يحبسهم عنها ذنب عظيم، كمظالم العباد ونحوها، فإذا كانوا خالين من ذلك تلقاهم ربهم بالعفو والرحمة. . . . قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وممن ذهب إلى هذا القول: أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجماعات من السلف.

قال الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله: إن أرواح المؤمنين فى الجنة، وأرواح الكفار فى النار.

وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار فى بئر بَرهوت - بئر بحضرموت -.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء فى الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وقال سلمان الفارسى: أرواح المؤمنين تذهب حيث شاءت، وأرواح الكفار فى سجين.

وقال ابن قتيبة: ذهب جماعة من العلماء إلى أن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم. ومنهم من ذهب، من أهل السنة والجماعة، إلى أن أرواح المؤمنين والكفار

فى القبور، وأن الروح تنعم وتعذب فى القبر إلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

وذهب جماعة من العلماء إلى أن محل الأرواح ومستقرها فى السماء الدنيا، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ ليلة الإسراء، أنه رأى ليلة أسرى به فى السماء الدنيا آدم - عليه السلام - وعن يمينه أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

وعن رسول الله ﷺ فى حديث الرؤيا، أنه قال فيه: «**فأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم - عليه السلام - وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة**»، فقيل يا رسول الله: وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**» وفى رواية له: «**والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم والصبيان حوله أولاد الناس**»[(١)]. فهذا الحديث ليس هو عام فى جميع الأرواح، وإنما هو خاص بأرواح الصغار، وما رأيت أحدًا ذهب إلى التفرقة بين أرواح الصغار والكبار لهذا الحديث، ولا أعلم أحدًا قال به، والله أعلم.

فصل: فى الإشارة إلى الدليل

قال ﷺ فى الشهداء: «إن أرواح الشهداء فى جوف طير خُضر، لها قناديل معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل»[(٢)].

قال القاضى عياض: فى هذا الحديث ذكر أرواح الشهداء، وفى حديث مالك: إنما نسمة المؤمن، لم يذكر الشهداء، والنسمة تطلق على ذات الإنسان جسمًا وروحًا، وتطلق على الروح مفردة، وهو المراد بها فى هذا الحديث، والله أعلم. وفى الحديث دلالة على أن المراد بها الروح قطعًا. وقيل: المراد جميع أرواح المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب؛ فيدخلونها الآن بدليل عموم الحديث. كذا ذكره النووى فى شرح مسلم..... قال ﷺ: «**أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها**»[(٣)]. وهذا إخبار منه ﷺ عن الشهداء المؤمنين.

وأخبر سبحانه وتعالى عن أرواح قوم فرعون، أنها تُعْرض على النار غدوًا

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٧) كتاب التعبير، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٧) كتاب الإمارة، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

وعشيًا قبل يوم القيامة، وليس للعقول في هذا مجال؛ فإنه سبحانه وتعالى يتصرف فيها كيف شاء.

قال العلامة ابن القيم: هذه حياة أرواحهم ورزقها، والأبدان قد تمزقت.

وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة، بأن أرواحهم في جوف طير خضر، لها معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أى شىء نشتهى، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن تُرَدَّ أرواحنا فى أجسادنا، حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى(١).

وعن ابن عباس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، تَرِدُ أنهارَ الجنة تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش؛ فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء فى الجنة نُرزق، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا يتكلوا عند الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾** [آل عمران: ١٦٩](٢).

ولا أعلم أحدًا ذهب إلى أن هذا النعيم المذكور مختص بالذين قتلوا فى أحد، والله أعلم.

وذهب ابن حزم وجماعات إلى أن مستقر الأرواح، حيث كانت قبل خلق أجسادها، قال ابن حزم: وهذا الذى أخبر الله تعالى به ونبيه ﷺ لا يتعداه وهو البرهان الواضح.... قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾** [الأعراف: ١٧٢]. وكذلك أخبر ﷺ أن: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف**

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٢٠) كتاب الجهاد، وأحمد (٢٣٨٤)، من حديث ابن عباس ؓ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٠٥).

منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[١]، وأخذ الله شهادتها له بالربوبية، وهى مخلوقة مصورة عاقلة، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وقبل أن يدُخلها فى الأجساد. إلى أن قال ابن حزم: فصحّ أن الأرواح أجساد حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر، وأنها عارفة مميزة، فإذا توفاها الله تعالى، رجعت إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، عند سماء الدنيا، . . . . أرواح أهل السعادة عن يمين آدم، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره، وذلك عند منقطع العناصر، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة. ثم قال: وقد ذكر محمد بن نصر المروزى، عن إسحاق بن راهويه هذا الذى ذكرنا بعينه. ثم قال: على هذا أجمع أهل العلم، انتهى كلامه.

وذكر الأدلة على ذلك ولم يذكر خلافًا، وقد تقدم ذكر الخلاف على ذلك؛ وما ذكره أبو محمد بن حزم، فهو يبنى على أصل، وهو أن الأرواح هل خُلقت قبل الأجساد، أو الأجساد خلقت قبل الأرواح؟.

فهذه المسألة للناس فيها قولان حكاهما شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره:

أحدهما : ما حكاه واختاره ابن حزم، ومحمد بن نصر المروزى؛ وقد تقدم، وذكرنا ما استدل به.

والقول الثانى : وعليه عامة السلف والخلف ، أن الأجساد خَلْقُها متقدم على الأرواح.

وفى الصحيح : أن النبى ﷺ قال: «**إنّ أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا، نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**»[٢] الحديث المشهور. فنفخ الملك فيه الروح هو سبب حدوث الروح فيه، ولو كان للروح وجود قبل البدن، وهى حية عالمة ناطقة، لكانت ذاكرة فى هذا العالم، شاعرة به ولو بوجه ما.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٨) كتاب البر والصلة والآداب، من حديث، ورواه البخاري معلقًا في كتاب أحاديث الأنبياء باب الأرواح جنود مجندة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

* **وفى قوله ﷺ : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**[1]. قال الخطابى وغيره: هو ما خلقها الله عليه من السعادة والشقاوة فى المبتدأ، فالأرواح قسمان متقابلان؛ فإذا تلاقت الأجساد فى الدنيا ائتلفت واختلفت، بحسب ما خُلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار. انتهى كلامه.

ومن هذا الباب ما احتج آدم وموسى، قال الحسن: معناه التقت أرواحهما فى السماء، فوقع الحجاج بينهما. قال القاضى عياض: ويحتمل أنه على ظاهره، وأنهما اجتمعا بأشخاصهما. وقد ثبت فى حديث الإسراء أن النبى ﷺ اجتمع بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى السموات، وفى بيت المقدس، صلى بهم، . . . . قال: فلا يبعد أن الله أحياهم. قال: ويحتمل أن قصة موسى جرت فى حياة موسى، وأنه سأل ربه أن يريه آدم فحاجَّه، والله أعلم.

* وهل الأرواح مخلوقة محدثة كائنة بعد أن لم تكُن أم قديمة؟

قال العلامة ابن القيم: وهذه المسألة زْل فيها عالم، وضل فيها طوائف من بنى آدم، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين. فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له. . . . وتوقف فى ذلك آخرون فقالوا: لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة. انتهى كلامه.

وقال محمد بن نصر المروزى: لا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها. انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمى مخلوقة مبدعة، باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة. وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة، غيرُ واحد من أئمة المسلمين.

---

(١) سبق تخريجه.

فصل : فيمن استدل بإضافة الروح إلى الله تعالى

من استدل بإضافة الروح إلى الله تعالى بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان:

أحدهما : صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى موصفها صفات له غير مخلوقة.

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، ورسول الله، وروح الله، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضى تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف إليه عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكًا لـله، وكذلك ناقة الله، والنوق كله ملكه وخلقه، ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضى محبته لها وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وإيجاده. . . . وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات.

فتأمل هذا الموضع، فإنه ينفعك فى التخلص من البدع فقد ضل فيه خلق كثير، نسأل الله العصمة.

فصل : وهل الأرواح تموت أم الموت للأبدان خاصة؟

فقد اضطربت مقالات الناس فى هذا الباب، فقالت طائفة: تموت وتذوق الموت؛ لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت.

قالوا: وقد دل القرآن عليه بقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خُلقت للبقاء؛ وإنما تموت الأبدان.

قالوا: وقد دل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة

إلى أن يرجعها الله فى أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب.

قال العلامة ابن القيم: والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهى لا تموت؛ بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو عذاب.

* وهل عذاب القبر على الروح والبدن؟ أو على الروح دون البدن؟ أو على البدن دون الروح؟ وهل يشارك البدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد أن سئل عن هذه المسألة، فأجاب: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذا الحال مجتمعين، كما تكون الروح منفردة عن البدن، منعمة أو معذبة.

وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام، وفى المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث:

قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا يقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه، فجميع هؤلاء الطوائف ضُلال فى أمر البرزخ، لكنهم خير من الفلاسفة، فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى، وأما الأحاديث الدالة على نعيم القبر وعذابه فهى كثيرة جدًا.... فعن ابن عباس ﵄ أن النبى ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة**»(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٦) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة، من حديث ابن عباس ﵄.

وقال ﷺ: «**إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها؛ فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوَّذ بالله من أربع: يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»(٢).

والأحاديث كثيرة جدًّا في هذا الباب.

وفي حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**للقبر ضغطةٌ، لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ**»(٣). قال نافع: بلغني أنه شهد جنازته سبعون ألف ملك، لم ينزلوا إلى الأرض قطُّ. وفي لفظ: «**منديل من مناديل سعد خير من الدنيا وما فيها**».

قال المروزي: قال الإمام أحمد: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضالٌّ مُضِلٌّ.

قال العلامة ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم، أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق العذاب، نالهُ نصيبهُ منه، قُبِرَ أو لم يُقْبَرْ؛ فلو أكلته السباع، أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء، أو صُلب، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور. انتهى كلامه.

ومما ينبغي أن يعلم أن البلى يختص هذا البدن المشاهَد المركَّب، فإن هذا البدن ليس بشيء إنما هو آلة، والنظر إلى ما يؤذي الروح وينفعها.

وقد روى أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - بإسناده قال: دخل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المسجد وقد قُتل عبد الله بن الزبير، فمال إلى أسماء أم ابن الزبير، فقال لها: اصبري فإن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله تعالى... ثم قال: وروينا عن ابن الزبير، أنه قال لأمه أسماء قبل قتله: يا أماه، إن قُتلت فإنما أنا لحم لا يضر ما صُنع بي.

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٥٨٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

الباب السابع والعشرون
فى عد الشهداء وفضلهم
وأنهم أرفع درجات من الصالحين

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قال قتادة: قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يكون الحال فى الجنة، وأنت فى الدرجات العلى، ونحن أسفل منك؟ فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ فى أداء الفرائض ﴿وَالرَّسُولَ﴾ فى السنن ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩] أى: لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالسهم. فأعلى درجات بنى آدم الأنبياء ثم الصِّدِّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون.

قال ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة»(١).

وقال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(٢).

وقال ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد فى سبيل الله - عز وجل -»(٣).

للناس فى تفسير علة البطن ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الذى يموت بالاستسقاء.

والثانى: الذى يموت بالمغص الشديد - هو الذى يسمونه القولنج - وهو مرض معروف.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٩٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٧) كتاب الإمارة، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة، من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٢٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩١٤) كتاب الإمارة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثالث : الذى يموت بالإسهال. انتهى كلامه.

قلت : والقول الثالث هو الراجح عند أكثر أهل العلم.

قال رسول الله ﷺ : «**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد؛ ومن قُتل دون أهله فهو شهيد**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : «**من قُتل دون مظلمته فهو شهيد**»[(٢)].

* ومما ينبغى أن يُعلَم أن العبد، إذا نظر أو سمع ما تقدم فى هذا الباب من تنوع الشهادة، وذكر تعدادها، حصل له تسلية بموت محبوبه، فإنه فى الغالب لابد أن يكون ناله نصيب منها، مع أنى لم أحِطْ بكل ما ورد عن النبى ﷺ فى تسمية الشهداء.

وتقدّم ما أعد الله للشهداء من حين الموت، وما لهم عند الله، وأن أرواحهم فى حواصل طير خضر تأكل وتشرب فى الجنة، وتسرح حيث شاءت، وكل هذا فى دار البرزخ؛ فإذا دخلوا الجنة يومَ القيامة بأجسادهم انتقلوا إلى نعيم أعلى من ذلك وأكثر منه.

فانتقال العبد إلى الله وما عند الله، هو خير لعباده من هذه الدنيا التى خلقهم فيها؛ فينظر كيف يعملون ويبتليهم بالمحن والمصائب، والشهادات، حتى يعلم الصابر منهم والجازع، ليجازى كل شخص بحسبه، فمنهم من يجازيه بالجنان، ومنهم من يجازيه بالنيران؛ وكل ذلك عدل منه سبحانه وتعالى، لا يظلم مثقال ذرة، بل إن أدخل العبد الجنة فبرحمته وفضله؛ وإن أدخله النار، فبعدله وسلطانه: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ فله الحمد دائمًا على كل حال.

* والشهادة المطلوبة شهادة المعركة على ما تقدم؛ وكذلك شهادة الطاعون، فإنه قد ورد فيها أحاديث وآثار فى تمنى الطاعون؛ كما وقع فى قصة المغيرة بن شعبة أنه

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٤٢١) كتاب الديات، من حديث سعيد بن زيد، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٤٤٥).

(٢) صحيح: رواه النسائي (٤٠٩٣) كتاب تحريم الدم، وأحمد (٢٧٧٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٤٤٧).

قال: اللهم ارفع عنا الرِّجْـز - يعنى الطاعون - فقال أبو موسى الأشـعرى رضي الله عنه: أما أنا فلا أقول هذا، ولكن أقول كما قال العبد الصالح أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم طعنًا وطاعونًا فى مرضاتك.

قال صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اجعل فناء أمتى قتلاً فى سبيلك بالطعن والطاعون**»(١).

وقد ورد فى بعض الأحاديث أن النـبى صلى الله عليه وسلم استعاذ من بعض ما عـده شهادة، ففى مسند الإمام أحـمد مرفوعًا أنه صلى الله عليه وسلم «**استعـاذ من سبع موتات: من مـوت الفجأة، ومن لدغ الحية، ومن السبعُ، ومن الغرق، ومن الحـرق، ومن أن يخر على شىء أو يخر عليه شىء، ومن القتل عند فرار الزحف**»(٢).

ورواه النسائى، ولفظه: «**اللهم إنى أعوذ بـك من التردى والهدم، والغـرق، والحرق؛ وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعـوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديغًا**»(٣).

والشهيد ثلاثة أقسام :

أحدها : شهيد فى الدنيا والآخرة، وهو المقتول فى المعركة مخلصًا.

والثانى : شهيد فى الدنيا فقط، وهو المقتول فى المعركة مرائيًا.

والثالث : الشهيد فى الآخرة فـقط، وهو من أثبت له الشارع الشهادة، ولم يجر عليه أحكامها فى الدنيا، كالغريق والحريق، ومن به ذات الجنب.

أسباب تسمية الشهيد بهذا الاسم:

فإن قيل: لِمَ سمى الشهيد شهيدًا ؟

قيل : قد اختلف العلماء فى ذلك على أقوال:

أحدها : لأنه حى كما قـال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ١٦٩﴾ [آل عمران: **١٦٩**].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٥١٨١)، وصححه العلامـة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٥٨) من حديث أبي بردة الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٦٥٥٨، ١٧٣٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٣) صحيح: رواه النسائي (٥٥٣١) كتاب الاستعاذة، من حديث أبي اليسر رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٨٢).

الثانى : لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة.

الثالث : لأن الملائكة تشهده.

الرابع : لقيامه بشهادة الحق حتى قتل.

الخامس : لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل.

السادس : لأنه شهد لله بالوجود والإلهية بالفعل لما شهده غيره له بالقول.

السابع : لسقوطه بالأرض وهى الشاهد له.

الثامن : لأنه شُهد له بوجوب الجنة.

التاسع : من أجل شاهده وهو دمه.

العاشر : لأنه شهد له بالإيمان وحسن الخاتمة.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى جزء الثبات عند الممات فى هذا المعنى عن علىّ بن الموفق قال: سمعت حاتمًا الأصم. يقول: لقينا الترك، وكان بيننا جولة، فرمانى تركى بسهم فقلبنى عن فرسى، فنزل عن دابته، فقعد على صدرى وأخذ بلحيتى وأخرج من خُفّه سكينًا ليذبحنى، فوحقِّ سيدى ما كان قلبى عنده، ولا عند سكينه، إنما كان قلبى عند سيدى «الله عز وجل» أنظر ماذا ينزل به من القضاء منه؛ فقلت: سيدى قضيت علىَّ أن يذبحنى هذا؟ فعلى الرأس والعين، إنما أنا لك وملكُك؛ فبينما أنا كذلك، وهو قاعد على صدرى، إذ رماه بعض المسلمين بسهم، فما أخطأ حلقه فسقط عنى فقمت إليه، وأخذت السكين من يده، فذبحته بها. فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند مليككم، حتى تروا من عجائب لطفه مالا ترون من الآباء والأمهات.

* * *

الباب الثامن والعشرون
في ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه

أما الصراط فهو جسرٌ منصوب على متن جهنم، وهو أحدُّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، ثبتنا الله وإياكم على المرور عليه..... ويؤذن له، وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتى الصراط، يمينًا وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشدّ الرجال، تجرى بهم أعمالهم؛ ونبيكم قائم على الصراط، يقول: «**يا ربِّ سلم، سلم**»؛ حتى تعجز أعمال العباد، وحتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا؛ قال: «**وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة، مأمورة، تأخذ من أُمرت بأخذه، فمخدوش ناج، ومكدوس فى النار؛ والذى نفس أبى هريرة بيده، إن قعر جهنم لسبعون خريفًا**»[(١)].

والله إنه أحدُّ من السيف، وأدق من الشعرة، وعلى يمينه وشماله كلاليب وخطاطيف؛ فإذا كلفت المرور عليه وهو بهذه المثابة ــ وأعظم من ذلك أن جهنم تحتك، وقد أرعب قلبك من هول منظرها، وملأ أذنيك زفيرها ــ فهل تستطيع المرور أو النهوض أو الزحف؟ فإنه إذا اضطرب بك الصراط، والتهب السعير من تحتك التهابًا، ولم تجد إلى النجاة سبيلاً، ولا إلى الخلاص مقيلاً، فلا ينفعك فى تلك الحال إلا سعى صالح مشكور، أو توبة نصوح من ذنب مغفور؛ فتخيّر الآن أى الأعمال أنجى لك؟ وأى الطرق معينة لك على سعيك لما ينفعك؟

* * *

الباب التاسع والعشرون
فى ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد

قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال ﷺ: «**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين، بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها**

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان، من حديث حذيفة.

على اليهود والنصارى»(١).

كما ورد في الصحيح: «هذا فَكَاكُكَ من النار»(٢). وهذه بشارة عظيمة للمسلمين أجمعين حتى قال الشافعي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد مرفوعًا إلى أن قال فيه: «فيقال: أخرجوا من عرفتم». يعني من النار - فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا، وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه؛ فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه؛ فيخرجون خلقًا كثيرًا» إلى أن قال: «ثم يقال: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا». وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبض قبضة من النار (أي من أهل النار) فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطّ، قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حَمِيل السيل. قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله؟ الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقال: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: ربنا، وأيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(٣).

وقد أخبر تعالى أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه كتب على نفسه الرحمة. وقال: سبقت رحمتي غضبي، وغلبت رحمتي غضبي، فالجنة دار رحمته، والنار دار غضبه؛ فثبت أن الجنة ينشئ لها خلقًا في الآخرة، ويدخلها أيضًا من دخل النار أولاً؛ ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرًا قط، وثبت

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٧) كتاب التوبة، من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٤٠) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٢) كتاب الإيمان، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أن النار لا يعذب أحد فيهـا بغير ذنب، فرحمته واسعة حتى أن جـماعة من المفسرين ذكروا قصة فرعون: قال جبريل: يا محمد، لو رأيتنى وأنا أدس الطين فى فىّ فرعون (أى فمه) مخافَةَ أن يقول فرعون كلمـة يرحمه الله بها؛ فهذا جبريل من أعظم رسل الملائكة، قد علم سعَة رحمة الله، ففـعل ذلك مخافة إدراك الرحمة له، مع أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾.

ومما ينبغى أن يعلم، أن مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف، أن من مات موحدًا أدخل الجنة قطعًـا على كل حال؛ فإن كان سالمًا من المعاصى كـالصغير، والمجنون الذى اتصل جنونه بالبلوغ، والتـائب توبة نصوحًا صـحيحـة من الشرك أو غيره من المعاصى إذا لم يحدث معصية بعد توبته، ومن نشأ فى عبادة الله ولم يقارف معصية أصلاً؛ كل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار.

وأما من مات من أهل المعاصى؛ أو لـه معصية كبيرة ولـم يتب منها، فهو داخل تحت مشيـئـة الله، إن شاء الله عذبه بمـقدار ذنبه، أو القـدر الذى يريده، ثم يدخله الجنة؛ وإن شاء عفا عنه مطلقًا، فلا يخلد أحد فى النار مات على التوحيد.

قال رسول الله ﷺ : «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١).

قال ﷺ : «**أتانى جبـريل فبشـرنى أنه من مات من أمـتك لا يشرك بالله شيـئًا دخل الجنة. فقلت: وإن زنى وإن سرق، فقال: وإن زنى وإن سرق**»(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه **قال:** قلت: يا رسـول الله، من أسعـد الناس بشفـاعتك؟ قال: «**أسـعد الناس بشـفـاعتى يوم القـيـامة من قـال: لا إله إلا الله خـالصًـا مخلصًـا من قلبه**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ : «**لكل نبى دعـوة مستـجابة، فـتعجَّل كل نبـى دعوته؛ وإنى خبأت دعوتى شفـاعةً لأمتى يومَ القيامة، فهى نائلة إن شـاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦) كتاب الإيمان، من حديث عثمان بن عفان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٨٧) كتاب الإيمان، ومسلم (٩٤) كتاب الإيمان، من حديث أبي ذر.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٩٩) كتاب العلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٩) كتاب الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الباب الثلاثون
فى فضل الزهد فى الدنيا والتسلية عنها والرغبة فى الآخرة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)﴾ [النساء: ٧٧]، فالاستمتاع بالدنيا قليل، ومتعتك بها قليل من قليل، وثواب الآخرة خير وأفضل لمن اتقى المعاصى وأقبل على الطاعات.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما **قال:** أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى، فقال: «**كن فى الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل**». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح؛ وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء؛ وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك(١).

قال جماعة من العلماء فى تفسير هذا الحديث: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها، فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه؛ ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.

وعن سهل بن سعد الساعدى قال: جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، دلّنى على عمل، إذا عملته أحبنى الله، وأحبنى الناس، فقال: «**ازهد فى الدنيا، يحبَّك الله؛ وازهد فيما فى أيدى الناس، يحبَّك الناس**»(٢).

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شَربة ماء**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق، من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٠٢) كتاب الزهد، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٤٤)، وصحيح الجامع (٩٢٢).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٠) كتاب الزهد، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٩٢).

وقال ﷺ : «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا**»(١).

وعن عبد الله بن الشخير قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**»(٢).

وقال ﷺ : «**إن الدنيا حلوة خضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**»(٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ **قال:** قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبَغ فى جهنم صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطُّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ فى الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم؟ هل رأيت بؤسًا قطُّ؟ هل مرَّ بك شدة قطُّ؟ فيقول: لا والله، ما مرَّ بى بؤسٌ قطُّ، ولا رأيت شدة قطُّ**»(٤).

* ومن العجب كل العجب، أن العبد يصدّق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور؛ فمن أحبه الله حماه عن الدنيا، كما يحمى أحدكم مريضه عن الماء.

قالوا: يا أمير المؤمنين (علىّ بن أبى طالب) صِف لنا الدنيا؟ قال: وما أصف لكم من دار؟ مَن صح فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فُتن، فى حلالها الحساب، وفى حرامها النار.

* واعلم أن شرور الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا أو أيامًا ساءت أشهرًا أو أعوامًا، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما حصل للعبد فيها سرورًا إلا خبأت له أضعاف ذلك شرورًا.

قال ابن مسعود: لكل فرحة تَرْحة وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٢) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١١٢) كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٨) كتاب الزهد والرقائق، من حديث عبد الله بن الشخير.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس، وأشدهم ملكًا؛ ثم لم تغب الشمس، حتى رأيتنا، ونحن أذل الناس؛ وإنه حق على الله ـ عز وجل ـ أن لا يملأ دارًا حَبْرة، إلا ملأه عَبْرة. . . . وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذات صباح، وما فى العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا.

* **وثبت فى الصحيح مرفوعًا:** أنه ﷺ قال: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»(١).

قال أهل اللغة: القوت: ما يسد الرمق.

وعن المستورد بن شداد الفهرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما الدنيا فى الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بما ترجع إليه»(٢).

وقال الحسن البصرى: والذى نفسى بيده لقد أدركت أقوامًا، كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه.

ثم علامة الشقاء قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا.

وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت علىَّ حلالاً لا أحاسَب بها فى الآخرة؛ لكنت أتجنبها كما يتجنب أحدكم الجيفة ـ إذا مر بها ـ أن تصيب ثوبه.

* حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة، وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة؛ فصعد الخطيب المنبر، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ أما بعد: فإن الدنيا دار ممر؛ والآخرة دار مقرّ؛ فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ وأخرجوا الدنيا من قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم.

فما أبلغ هذه الخطبة وأفصحها، وأوجزها!

قال أبو عمران الجونى: مر سليمان بن داود - عليهما السلام - فى موكبه، والطير تظله، والجن والإنس عن يمينه وشماله، قال: فمر عابد من عباد بنى إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا! قال: فسمع سليمان كلمته، فقال: تسبيحة فى صحيفة مؤمن خيرٌ مما أعطى ابن داود، وما أعطى ابن داود يذهب، والتسبيحة تبقى.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزكاة، من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

* ومن بذل وسعه فى التفكر التام، علم أن هذه الدار رحلة، فجمع للسفر رَحله ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطن الأمهات ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر، ثم إلى دار الإقامة الأبدية.

ولابد له فى سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلابد من تعب الشخص والتصبر على مرارة التقوى، لئلا يقول وقت السير: ارجعون، فيقال: كلا.

روى **ابن أبى الدنيا قال**: أنشدنى الحسن ابن السكن:

حياتك بالهمّ مقرونةٌ فما تقطع العيش إلا بهمّ

لذاذات دنياك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسُمّ

إذا تم أمرٌ بدا نقصُه توقع زوالاً إذا قيل تَمّ

وقال بعض السلف: احذروا دار الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه.

وجاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى - عليه السلام -: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عُجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحبًا بشعار الصالحين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

القاهرة في
٦ صفر ١٤١٩ هـ
ايونية ١٩٩٨ م

اختصره وحققه
الفقير إلى عفو الرحيم الغفار
محمود المصري
(أبو عمار)

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

* * *